الندوة

نشـــرة إلكترونية فصلية تصدر عن الندوة الثقافية المركزية

العدد التاسع – حزيران 2025

العقل في الانسان هو نفسه الشرع الأعلى والشرع الأساسي.

سعاده

إشكالية النقد في الحزب السوري القومي الاجتماعي

******

العقل النقدي هو الضمانة الوحيدة لحركة قومية اجتماعية حيّة ومتجددة

في هذا العدد

- ✓ كلمة رئيس الندوة الثقافية المركزية
- ✓ إشكالية النقد في الحزب السوري القومي الاجتماعي – ندوة للأمين الدكتور نسيب بو ضرغم
- ✓ كلمة وكيل عميد الثقافة
- ✓ مرسوم بإنشاء لجنة النقد العقائدي
- ✓ مقدمات منهجية لنقد الحزب
- ✓ النقد كوسيلة بناء في حزب النهضة السورية القومية الاجتماعية.
- ✓ ذاكرة إنتقائية – حقائق مغيّبة
- ✓ نشوء الأمم بين علم الاجتماع والعقيدة القومية الاجتماعية – ندوة للرفيقة الدكتورة لبنى طربيه
- ✓ نشوء الأمم بين علم الاجتماع والعقيدة القومية الاجتماعية – بحث للأمين الدكتور يوسف كفروني
- ✓ كتاب الزعيم العلمي
- ✓ منطلقات اقتصادية في فلسفة الإنسان-المجتمع
- ✓ بين النهج العلمي والطقوس اللاهوتية

عودة إلى الرئيسية

العقل النقدي هو الضمانة الوحيدة

لحركة قومية اجتماعية حيّة ومتجدّدة.

بقلم رئيس الندوة الثقافية المركزية

الأمين الدكتور ادمون ملحم

الجزء الأول: المقدمة والسياق الفلسفي للنقد

مقدمة:

لطالما كان النَّقدُ عاملًا أساسيًّا في تطوّرِ الفكرِ الإنسانيّ؛ فمن خلالِهِ تتجدّدُ الأفكارُ، وتتطوّرُ المؤسّساتُ، وتُصحّحُ المساراتُ وتُعالج الأخطاء وتنفتح آفاق جديدة للتغيير والابداع. وقد شدّدَ كبارُ الفلاسفةِ والمفكّرين، من إيمانويل كانط إلى جون ستيوارت ميل، على أنّ المجتمعاتِ التي تفتحُ أبوابَ النّقدِ بوعيٍ هي الأكثرُ قدرةً على التقدّم. لكنّهم، في الوقتِ ذاتهِ، نبّهوا إلى أنّ النَّقدَ ينبغي أن يكونَ عقلانيًّا ومنهجيًّا، لا مجرّدَ هدمٍ عشوائيٍّ أو فوضى فكريّة. وفي عصرنا الراهن – عصر التكنولوجيا الرقمية والانفتاح الكبير بين الدول والثقافات والسرعة الهائلة في تناقل المعلومات والأخبار، أصبح النقد والتفكير النقدي ضرورة كبرى لمواكبة العصر وتحليل المعلومات والأفكار بموضوعية ومنهجية وتصويبها والربط الصحيح بينها بهدف الوصول إلى استنتاجات قائمة على الأدلة والحقائق وتقديم حلول مبتكرة ومستدامة.

يُعدُّ إيمانويل كانط من أبرزِ من أسّسوا للنقدِ كأداةٍ مركزيّةٍ في الفلسفةِ الحديثة. ففي كتابهِ *نقد العقل الخالص*، يطرحُ كانط فكرةَ أنّ النّقدَ ليسَ رفضًا سلبيًّا، بل هو شرطٌ ضروريٌّ لبناءِ المعرفةِ الصّحيحة وطريق للوعي العقلاني الحقيقي. غيابُ النقدِ يؤدّي إلى دوغمائيّةٍ فكريّةٍ تحبسُ العقلَ في قوالبَ جاهزةٍ وتمنعُ أيَّ تجدّدٍ فكريٍّ أو علميّ.[1] وقد رأى أنّ التّنوير لا يتحقّقُ إلا بتحريرِ الفكرِ من السلطةِ التقليديّة، من خلالِ التّمحيصِ العقلانيّ للأفكارِ السائدةِ ومراجعتها بصورةٍ مستمرّة. كما

[1] كانط، إيمانويل .نقد العقل الخالص، مقدمة الطبعة الثانية، 1787.

اعتبر ان التنوير يصبح ممكنًا عندما تكون ممارسة التفكير النقدي سائدة بين عموم الناس.[2]

أمّا الفيلسوف الألماني جورج فيلهلم فريدريش هيغل (Georg Wilhelm Friedrich Hegel)، فقد نظر إلى التّاريخِ بوصفهِ عمليّةً جدليّةً تتطوّرُ من خلالِ التّناقضات، ويتمُّ تجاوزُها بالنقدِ؛ أي أنّ التّاريخَ نفسه لا يتقدّمُ إلا عبرَ حوارٍ نقديٍّ دائمٍ مع الذاتِ والواقع. من جهته، شدّد الفيلسوف النمساوي–البريطاني كارل بوبر (Karl Popper) على أنّ النّقدَ هو جوهرُ المنهجِ العلميّ، مؤكّدًا أنّ المعرفةَ العلميّةَ تتطوّرُ فقط عندما تكونُ النّظريّاتُ قابلةً للدّحضِ والنقاش. كلُّ فكرةٍ لا تُنتقَد، بحسبِ بوبر، تتحوّلُ إلى أيديولوجيا مغلقة.

هذا الموقفُ الفلسفيّ يلتقي جوهريًّا مع رؤيةِ أنطون سعاده، الذي رأى أنّ النهضةَ القوميّةَ الاجتماعيّةَ لا يمكنُ أن تظلَّ حيّةً وفاعلةً ما لم تخضعْ باستمرارٍ لمراجعةٍ نقديّةٍ عقلانيّةٍ من داخلِ الحزب. فالعقلُ النّقديُّ يقضي على الجمودِ والانحرافِ ويحافظُ على "نظامِ العقائدِ الأساسيّة" الضّروريّ لتسديدِ حياةِ الأمّةِ.[3]

في السّياقِ السّياسيّ، اعتبرَ الفيلسوف والاقتصادي البريطاني جون ستيوارت ميل (John Stuart Mill) في كتابهِ *عن الحريّة* أنّ حرّيّةَ النّقدِ شرطٌ أساسيٌّ لبقاءِ أيّ نظامٍ ديمقراطيٍّ حيّ، مؤكّدًا أنّ الحقيقةَ لا تزدهرُ إلا في مناخٍ يتيحُ النّقاشَ الحرّ. لكنّه، مثلَ الفلاسفةِ الآخرين، أشارَ إلى أهميّةِ تنظيمِ النّقدِ ضمنَ أطرٍ تحولُ دونَ تحوّلهِ إلى سلاحٍ فوضويٍّ مدمّرٍ للمجتمعِ أو المؤسّساتِ.

الجزء الثاني: سياق البحث وأهميته

في ضوء ما تقدّم من رؤية فلسفيّة لمفهوم النّقد، يتناول هذا البحث إشكاليّة النّقد داخل الحزب السّوريّ القوميّ الاجتماعيّ، باعتباره حزبًا عقائديًّا ذا بنية تنظيميّة صارمة[4]، تنطلق من عقيدة عقلانيّة ونهضويّة شاملة.

[2] يعتبر كانط ان التنوير هو خروج الإنسان من القصور الذي اقترفه في حق نفسه، أي من عجزه عن استخدام فهمه دون توجيه من غيره". راجع مقالته " ما هو التنوير؟"، 1784، في الأعمال الفلسفية السياسية.

3 من الزعيم إلى الدكتور [شارل] مالك "كتاب نقد وتوجيه"، النظام الجديد، بيروت، المجلد 1، العدد 1، 1948/3/1

[4] يعتبر سعاده " أنّ النظام هو ركن أساسي في عمل الحزب السوري القومي وحياته، ومورد من موارد قوّته الكبرى ." راجع مقالته بعنوان "النظام"، منشورة في الأعمال الكاملة، المجلد الثاني 1935 – 1937.

من هنا، يأخذ النّقد داخل هذا الحزب طابعًا إشـــكاليًّا مزدوجًا، إذ يُنظر إليه من جهة كضـــرورة فكريّة لضـــمان حيويّة النهضـــة واستمراريّتها، ومن جهة أخرى كأداة قد تهدّد وحدة الصفّ الحزبيّ إذا ما مُورس بشكل غير منضبط.

ينطلق هذا البحث من تساؤلات محوريّة:

- كيف يمكن تحقيق توازن فعليّ بين حرّيّة النّقد والانضـــباط العقائديّ؟
- ما هي حدود النّقد البنّاء داخل الحزب، وما الفرق بينه وبين النّقد الهدّام؟
- هل النّقد، إن خرج عن أطره، يمكن أن يتحوّل من أداة تصـحيح إلى عامل تفكّك داخليّ؟
- ولماذا يلجأ بعض القوميّين إلى ممارســة النّقد العلنيّ، خاصّــة عبر وسـائل التّواصــل الاجتماعيّ، بدلًا من التّفاعل مع الأطر النّظاميّة المتاحة؟

للإجابة عن هذه التّســـاؤلات، يعتمد هذا البحث على منهج تحليليّ يستند إلى فكر أنطون سعاده، ويستحضر مقولته التأسيسيّة" :العقل هو الشّـرع الأعلى والأسـاسـيّ"[5]، بوصـفها مفتاحًا لفهم العلاقة بين النّقد والعقيدة في المشروع القوميّ الاجتماعيّ. كما يستعرض البحث نماذج تطبيقيّة من تاريخ الحزب، ويدرس ظاهرة النّقد العلنيّ من منظور تنظيميّ وفلسـفيّ معًا، سـعيًا إلى تقديم تصـوّر متوازن يَجمع بين ضرورة النّقد ومستلزمات الوحدة الحزبيّة

الجزء الثالث: أنطون سعاده والنقد: الفكرة والمنهج

شكّل النّقد في فكر أنطون سعاده عنصـرًا بنيويًّا لا هامشـيًّا. فهو لم ينظر إلى النّقد باعتباره أداة للرّفض أو التّفكيك، بل اعتبره ضـــرورة تأسـيسـيّة لولادة وعي قوميّ جديد، قائم على العقل والتّحليل، لا على التّكرار والانفعال. فالأزمة الفكريّة، برأيه، لم تكن ناتجة عن نقص في الإنتاج المعرفيّ، بقدر ما هي نتاج غياب الوعي النّقديّ، وافتقار المؤسّسات الفكريّة والسياسيّة إلى أدوات فحص ومراجعة.

في خطابه التّأسيسيّ ومحاضراته العشر، أكّد سعاده مرارًا أنّ الحزب السّـوريّ القوميّ الاجتماعيّ هو مشـروع خروج من الفوضـى إلى النّظام، ومن البلبلة والتّضـارب والعشـوائيّة إلى الوضـوح والجلاء والفكر المنهجيّ.[6] وهذه النّقلة لا يمكن أن تتمّ إلّا عبر ممارسـة نقد داخليّ دائم، عقلانيّ ومنظَّم، هدفه تصويب المسار لا هدمه، وتجديد الحيويّة الفكريّة للعقيدة دون المساس بجوهرها القوميّ.

كان سعاده ناقدًا للمجتمع كما للحزب. فقد مارس النّقد داخل البنية الحزبيّة في مراحل حسّاسة عندما لاحظ مظاهر الانحراف أو التخبّط في دوائر الحزب العليا (مثلاً في قضية نعمة ثابت ومأمون أياس وفي قضية فايز صايغ وغسان تويني ويوسف الخال)[7]. وعلى أثر عودته من الاغتراب القسري وانكبابه بالنقد والتحليل لواقع الحزب وسعيه للقضاء على الفوضى والانحرافات التي كانت آخذة في التفشي، وجد سعاده ان أسباب هذه الظاهرة كامنة في "إهمال تاريخ الحزب وإغفال درس عقيدته ونظرته إلى الحياة والكون والفن."[8] وأضاف:

---

[5] أنطون سعاده، المحاضرات العشر 1948، ص 1

[6] راجع المحاضرة الثانية في المحاضرات العشر.

[7] يقول سعاده: "على أثر مجيئي ونظري إلى الأمور بالنقد والتحليل، وأخذي التدابير للقضاء على الفوضى والانحرافات التي كانت آخذة في التفشي وتهديد مستقبل هذه النهضة العظيمة القائمة بالإيمان، وآلام ألوف العاملين بإيمان وإخلاص. فلا بدّ من الاعتراف أنه كان في الدوائر العليا تفسخ في الأفكار والروحية وفي النظر إلى الحركة ومراميها." راجع المحاضرة الأولى في المحاضرات العشر.

[8] أنطون سعاده، المحاضرات العشر 1948، ص 18.

النظامية الفكرية والروحية والمناقبية التي كانت العامل الأساسي الأول في نشوء النهضة القومية الاجتماعية وتولّد هذه الحركة العظيمة الآخذة في تغيير نفسية هذه الأمة ومصيرها، كادت تنعدم في دوائر الحزب العليا بعامل الإهمال، وأصبحت الحركة مهددة بالميعان العقدي والنظامي.[9]

وفي كتابه *الصّراع الفكريّ في الأدب السّوريّ*، طبّق سعاده هذا المنهج النّقدي على السّاحة الثقافيّة، معتبرًا أنّ أزمة الأدب التّقليديّ – بخطابه الإنشائيّ أو التّملّقي أو التّحريضي – تكمن في غياب نظرة فلسفيّة إلى الحياة والكون والفنّ، وفي افتقاره إلى قاعدة نقديّة عقلانيّة تعبّر عن واقع الأمّة وتطلّعاتها.

تمثّل مقولته الشّهيرة: "**العقل هو الشّرع الأعلى والأساسيّ**"، جوهر الموقف السّعادويّ من النّقد. فحين يكون العقل هو المرجعيّة العليا و"القوة المميزة المدركة"[10]، تغدو كلّ فكرة وكلّ ممارسة خاضعة لفحص العقليّ. وهذا ما يعني أنّ الجمود، أو رفض المراجعة النّقديّة، خيانة لجوهر المشروع القوميّ الاجتماعيّ.

انطلاقًا من ذلك، آمن سعاده أنّ "المبادئ هي قواعد انطلاق الفكر"[11]، وأنّ "الفكر الذي ينطلق منها لا بدّ له من أن يُراجع ويُطوَّر وفق أسس علميّة ومنهجيّة، وضمن أطر تنظيميّة مسؤولة. لذلك، لم يكن موقفه من النّقد رفضًا له، بل تنظيمًا له وضمانةً لئلّا يتحوّل إلى تآكل داخليّ.

الجزء الرابع: النَّقدُ العقائديّ ولجنةُ النَّقد

من أبرزِ الخطواتِ التي اتّخذها أنطون سعاده لترسيخِ ممارسةٍ نقديّةٍ مسؤولةٍ داخلَ الحزبِ السّوريّ القوميّ الاجتماعيّ، إصدارُه مرسومًا عامَ 1947 بإنشاءِ **لجنةِ النّقدِ العقائديّ** (نص هذا المرسوم منشور في الصفحة 17 من هذه النشرة). يُعدُّ هذا القرارُ محطةً مفصليّةً في الفكرِ الحزبيّ، إذ عبّر عن إدراكِ سعاده للحاجةِ إلى تنظيمِ النّقدِ لا تعطيله.

أوّلًا: أسبابُ إنشاءِ اللجنة

كان سعاده، بوصفِهِ المؤسّس والزعيم، واعيًا بأنّ كلّ حركةٍ فكريّةٍ تحتاجُ إلى آليّاتِ فحصٍ ومراجعةٍ دائمة. فجاء إنشاء اللجنة في سياقٍ شهد تنامي بعض القراءات أو التوجهات داخل الحزب، التي بدت خارجة عن الأصول العقائدية، أو متأثرة بتيارات فكرية أجنبية.

- الحفاظُ على وحدةِ العقيدةِ وانسجامِ الفكرِ.
- مواجهةُ الانحرافاتِ داخلَ الحزبِ أو في محيطِهِ.
- إرساءُ مرجعيّةٍ حزبيّةٍ فكريّةٍ تنظيميّة في تقويم الأفكار والمواقف المطروحة.

ولم يكن القصد من اللجنة قمع النقاش، بل تنظيمه وتوجيهه ضمن إطار عقائدي منهجي، يتجنب العشوائية والانزلاق نحو التشكيك غير المنضبط.

ثانيًا: تركيبةُ اللجنةِ ووظيفتُها

اشترطَ المرسومُ أن يكونَ أعضاءُ اللجنةِ من "المجازين في فهمِ الأصولِ العقائديّة"، في دلالةٍ على أنّ النقدَ مسؤوليةٌ معرفيّةٌ، لا مساحةٌ للاجتهادِ العشوائيّ والتقديرات الفردية. لم يكن هدفُ اللجنةِ القمع، بل تقييمُ الإنتاجِ الفكريّ وضبطُ المصطلحاتِ بما ينسجمُ مع

[9] المرجع ذاته، ص 17.
[10] المرجع ذاته، ص 128.
[11] أنطون سعاده، المحاضرات العشر 1948، ص 16.

العقيدةِ، والتأكد من سـلامة الاتجاه العقائدي لأي طرح فكري داخل الحزب.

ثالثًا: النقدُ في ضوءِ العقلِ كمرجعيّةٍ

إنّ إنشاءَ لجنةِ النّقدِ يتناسقُ مع قولِ سعاده: "**العقل هو الشرع الأعلى والأساسي.**" فالنقدُ لا يُمارَس كترفٍ تنظيميّ، بل كواجبٍ عقليّ معرفيّ يُسهمُ في صونِ العقيدةِ وتفعيلِ النهضةِ لا تجميدِها.

رابعًا: أثرُ اللجنةِ

كان للجنة النقد العقائدي دور مهم في:

- الحدُّ من التّفسيراتِ الفوضويّةِ والتّجاوزاتِ الفرديّة التي حاولت تقديم تفسيرات خارجة عن المبدأ القومي الاجتماعي.
- تثبيتُ المرجعيّةِ الفكريّةِ والمؤسساتيّةِ داخلَ الحزبِ.
- مواجهةُ التحدّياتِ العقائديّةِ والتنظيميّةِ بعد الحربِ العالميّةِ الثانية.

الجزء الخامس: النَّقدُ الأدبيّ والفكريّ

لم يكن سعاده ناقدًا سياسيًّا أو تنظيميًّا فحسب، بل ايضا ناقدًا أدبيًا وفكريًا بامتياز. وقد برز ذلك بوضوح في كتابه *الصراع الفكري في الأدب السوري*، الذي يُعد عملاً فكرياً فريداً لما يتضمنه من تشخيص ونقد موضوعي لواقع الحياة الأدبية في سورية الطبيعية والعالم العربي، ومن دعوة للتجديد في الأدبِ وقيام نهضةٍ أدبيةٍ أصليةٍ تعبّرُ عن روحيّةِ الأمّةِ وتستوعِبُ مطامحَها النفسيّة .

1. سعاده كناقد ثقافي

في هذا الكتاب، تناول سعاده أزمة الأدب السوريّ وشقاءِ حالهِ، معتبرًا أن التخبط الذي تعانيه الساحة الأدبية ليس نتيجة ضعف في المواهب، بل في غياب مشروع فكري متكامل تستند إليه هذه المواهب. هذا الغياب للمشروع الفكري ساهم في إنتاج أدب تقليدي خالٍ من الأصالة والروح التجديدية. "فحيث لا فكر ولا شعور جديدين في الحياة لا يمكن أن تقوم نهضة أدبية أو فنية."[12]

وقد ربط بين أزمة الأدب وأزمة الهوية القومية، حيث رأى أن عدم وجود نظرة أصلية إلى الحياة والكون والفن يترك الفكر والثقافة في حالة من الفوضى والتبعية. لذلك دعا الأدباء والشعراء السوريين للأخذ "بنظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن، وبفهم جديد للوجود وقضاياه، نجد فيهما حقيقة نفسيتنا ومطامحنا ومثلنا العليا."[13] وأضاف:

> تعالوا نقيم أدباً صحيحاً له أصول حقيقية في نفوسنا وفي تاريخنا. تعالوا نفهم أنفسنا وتاريخنا على ضوء نظرتنا الأصلية إلى الحياة والكون والفن. بهذه الطريقة نوجد أدباً حياً جديراً بتقدير العالم وبالخلود[14].

كان نقده موجهًا إلى النمط الأدبي المحافظ والمقلّد، الذي ينقل عن الآداب القديمة أو الأجنبية دون وعي أو تمحيص. واعتبر أن النهضة الأدبية الحقيقية لا يمكن أن تنفصل عن النهضة القومية، ولا أن تزدهر في بيئة خالية من النقد العقلاني المستند إلى الواقع.

2. النهضة الأدبية كوجه من وجوه النهضة القومية

رأى سعاده أن الأدب والفن والفكر عموماً يجب أن يكونوا أدوات تعبير عن الروح القومية. لذلك دعا إلى انتاج أدب جديد يعبّر عن

[12] أنطون سعاده، الأثار الكاملة –1– أدب (الصراع الفكري في الأدب السوري)، بيروت، 1960، ص 30.

[13] المرجع ذاته، ص 65.

[14] المرجع ذاته.

حقيقة نفسية الأمة الجميلة ومثلها ومطامحها، ويسهم في بناء وعيها الاجتماعي.

وهنا تبرز مجددًا أهمية النقد: فكما أن النقد ضروري في التنظيم السياسي، هو أيضًا ضروري في الإبداع الثقافي لضمان عدم انفصاله عن الأمة.

3. موقع النقد الثقافي في النهضة القومية الاجتماعية

بهذا المعنى، يتحول النقد الأدبي والفكري في فكر سعاده إلى أداة استراتيجية. إنه ليس ترفًا ثقافيًا، بل ضرورة قومية. وإذا كان الحزب يسعى إلى بناء مجتمع جديد، فإن هذا المجتمع لا يُبنى بالسياسة وحدها، بل بثقافة جديدة، وفكر جديد، وأدب ملتزم بالهوية والانتماء، دون أن يفقد حريته الداخلية.

الجزء السادس: دورُ النّقدِ في الحزب ومبدأ العقل كشرع أعلى

كان أنطون سعاده يعتبر أن ممارسة النقد داخل الحزب السوري القومي الاجتماعي ليست فقط مباحة، بل ضرورية لضمان سلامة النهج واستمرار النهضة. غير أن هذا النقد، لكي يكون فعّالًا، لا بد أن ينبع من التزام عقائدي صارم، لا من نزعات فردية أو خصومات شخصية، وإلا تحوّلَ إلى أداة هدم تهدد وحدة التنظيم وروحية النهضة.

أ. النقد كأداة تصحيح لا وسيلة انقسام

سعاده ميَّزَ بوضوح بين النقد البناء والنقد العشوائي. الأول ضرورة فكرية وتنظيمية، والثاني مظهر من مظاهر الانحراف والخلل. ففي محاضراته إلى القوميين الاجتماعيين، حذر من اغفال درس عقيدة الحزب ونظرته إلى الحياة والكون والفن ومن أن غياب النقد أو استبداله بآراء شخصية غير منضبطة يؤدي إلى حالة من التخبط الفكري وتهديد للبنية العقائدية ذاتها.

وفي هذا السياق، رأى أن الحزب، بوصفه حركة عقائدية نهضوية وقوة نظامية، يجب أن يمتلك دائمًا القدرة على **تصحيح مساره من الداخل**، دون أن يسمح بتسلل الفوضى إلى جسمه التنظيمي.

ب. العقل هو الشرع الأعلى": قاعدة للشرعية والنقد

هذه المقولة الأساسية في فكر سعاده، لا تُلزم الحزب فقط بإعلاء العقل فوق العاطفة والانفعال، بل تؤسّس أيضًا لفكرة أن كل ممارسة حزبية – بما في ذلك الاجتهاد العقائدي – يجب أن تُعرض على ميزان العقل النقدي.

وبالتالي، فإن النقد داخل الحزب لا يُعد تعديًا على سلطاته أو ترفًا تنظيميًا، بل هو تعبير عن جوهر الفلسفة القومية الاجتماعية القائمة على العقل. فحين تغيب المراجعة العقلية المنتظمة، يتحول الحزب من حركة نهضوية إلى مؤسسة جامدة.

ت. الاستقلال الفكري كمقدمة للنهضة

يرتبط مفهوم النقد عند سعاده بمفهوم الاستقلال الفكري. فكما أن التبعية للعقائد الجاهزة تُنتج وعيًا مزيّفًا، فإن الولاء الحزبي غير النقدي يُنتج طاعة تنظيمية شكلية، لا انتماءً فكريًا فعّالًا.

وقد ظهرت هذه الرؤية بوضوح عندما واجه سعاده محاولات لترويج "الواقع اللبناني"[15] داخل صفوف الحزب، فرفضها نقديًا لأنها تُشكِّلُ خروجًا عقديًا وتتناقض مع الأسس العقلية والموضوعية للعقيدة القومية الاجتماعية، مؤكدًا أن المعيار في قبول أو رفض أي فكرة هو انسجامها مع العقل والواقع، لا مجرد شعبيتها أو تداولها.

[15] "الواقع اللبناني" كتبه نعمة ثابت وألقاه في اجتماع بعقلين سنة 1944. ويقول سعاده ان هذا الخطاب "يشكل خروجاً عن معنى الأمة الذي نفهمه والانتقال إلى القول بأمة جديدة: "الأمة اللبنانية" وهو، فوق ذلك، يدل على اهمال مقصود لدرس عقيدة الحزب وتاريخه.

الجزء السابع: النّقدُ العلنيّ ووسائلُ التّواصل الاجتماعيّ

في العقود الأخيرة، ومع تطور الوسائط الإعلامية وظهور وسائل التواصل الاجتماعي، برزت ظاهرة النقد العلني من داخل الحزب السوري القومي الاجتماعي، حيث لجأ بعض الأعضاء إلى التعبير عن ملاحظاتهم وانتقاداتهم للقيادات والسياسات الحزبية في الفضاء العام. وقد طرحت هذه الظاهرة إشكالية حقيقية: هل يُعد هذا النقد امتدادًا لحرية الرأي، أم خروجًا على النظام الحزبي وانضباطه العقائدي؟

1- التعارض بين الانضباط الحزبي وحرية النقد العلني

النظام الداخلي للحزب قائم على مبدأ الانضباط العقائدي والتنظيمي. وهذا يتطلب أن تُمارَس الآراء النقدية داخل الأطر الحزبية الرسمية: الاجتماعات، اللجان، المؤتمرات. فالإفصاح عن الخلافات أمام الرأي العام، خصوصًا في أزمنة الأزمات، يهدد وحدة الصف ويُضعف صورة الحزب أمام جمهوره وخصومه على السواء.

في المقابل، يرى البعض أن انسداد القنوات الداخلية أحيانًا، أو هيمنة نمط قيادي أحادي، يدفعهم إلى التعبير العلني كوسيلة ضغط للإصلاح.

2- أسباب تفشي النقد العلني

تتعدد العوامل التي ساهمت في شيوع هذه الظاهرة:

- **ضعف الثقة بالمؤسسات الحزبية:** البعض يرى أن آليات النقد الداخلي لم تعد فعّالة أو أنها تخضع لرقابة مشددة تمنعها من أداء دورها.
- **ثقافة وسائل التواصل الاجتماعي:** منحت هذه الوسائل الأفراد قدرة فورية على التعبير والتأثير، بعيدًا عن التسلسل التنظيمي.
- **احتقان سياسي وتنظيمي داخلي:** تراكم الأزمات دون معالجتها يدفع إلى الانفجار في غير مكانه.
- **غياب ثقافة النظام والانضباط:** لدى بعض الأعضاء، مما يؤدي إلى الخلط بين النقد الهادف والمزايدة أو التشهير.

3- موقف الحزب من هذه الظاهرة

أنطون سعاده كان واضحًا في رفضه تحويل النقد إلى ساحة صراع علني. فقد رأى أن الخلافات الداخلية إذا خرجت إلى العلن تتحول من مسألة فكرية إلى مادة انقسام، وتُستثمر من قبل الخصوم السياسيين لإضعاف الحزب. النقد، من هذا المنطلق، يجب أن يُمارس ضمن الانضباط العقائدي لا صده.

النقد العلني غير المنضبط قد يؤدي إلى:

- **ضرب صورة الحزب أمام المجتمع.**
- **تفتيت الجهود النضالية.**
- **زعزعة الثقة بالقيادة والمؤسسات التنظيمية.**

- الحلُّ لا يكونُ بالقمعِ، بل بتفعيلِ قنواتِ النقدِ الداخليّ وتثقيفِ الأعضاءِ. على الحزبِ أن يحتضنَ النقدَ المنظّم، لا أن يخشاه.

الجزء الثامن: الخاتمة والاستنتاجات

تطرح إشكالية النقد في الحزب السوري القومي الاجتماعي سؤالًا مركزيًا حول العلاقة بين الفكر والتنظيم، بين الحرية والانضباط، بين التجديد والالتزام. فالنقد، في فكر أنطون سعاده، ليس مجرّد موقف ظرفي، بل هو عنصر تأسيسي في المشروع القومي الاجتماعي ذاته. وحين يقول إن "**العقل هو الشرع الأعلى والأساسي**"، فهو يضع النقد، لا الطاعة العمياء، في صلب عملية البناء الفكري والتنظيمي معًا.

لقد تبيّن من خلال تتبّع تجربة الحزب في التعامل مع النقد، سواء من خلال إنشاء لجنة النقد العقائدي، أو من خلال خطابات سعاده النقدية للمجتمع وللرفقاء، أن النقد كان دومًا جزءًا من ديناميكية النهضة لا نقيضًا لها. لكن شرطه الأساس أن يكون عقلانيًا، منهجيًا، منضبطًا، صادرًا من وعي عقائدي لا من نزعة ذاتية.

التمييز ضروري بين النقد البنّاء الذي يصدر عن التزام وانتماء، وبين النقد العلني العشوائي الذي يهدد وحدة الصف

أبرز ما توصّل إليه البحث:

1. **النقد ضرورة فكرية وتنظيمية، لا ترفًا سياسيًا.**
وقد أكد سعاده ذلك عبر تنظيره وممارسته، رابطًا النقد بالعقل، لا بالانفعال أو التشهير.

2. **العقيدة هي نظام فكري وأساس "تبني عليه كل منشآتنا" ومرجع لكل خططنا.** كل انتاج معرفي وكل قراءات وشروحات تتناول العقيدة يجب ان تكون منسجمة مع أسس العقيدة وخاضعة للمراجعة ضمن أطر علمية ومنهجية. وهذا ما يبرر وجود لجنة نقد عقائدي تراجع وتُقوّم، لا لتكفّر أو تقمع. إنَّ النقد داخل الحزب يجب أن يكون موجَّهًا لتعزيزه وليس لتقويضه. ولحمايته من التأثيرات الفكرية الخارجية التي قد تتسلل إليه.

3. **التمييز ضروري بين النقد البنّاء الذي يصدر عن التزام وانتماء، وبين النقد العلني العشوائي الذي يهدد وحدة الصف.** والحلّ لا يكون بقمع الرأي، بل بتفعيل القنوات التنظيمية وتوسيع هوامش الحوار الداخلي المسؤول.

4. **التحوّلات الإعلامية فرضت تحديات جديدة على ضبط النقد داخل الحزب.** وهذه التحديات تستدعي مراجعة الأدوات التنظيمية، وتحديث ثقافة الانضباط، وليس الانغلاق أو الإنكار.

- **أية نهضة قومية لا تقوم على نقد ذاتها تبقى مهددة بالجمود والانقسام.** وبالتالي فإن صيانة العقيدة لا تكون بتحصينها من العقل، بل بتحصينها به. فالنّهضةُ لا تكتملُ بلا عقلٍ نقديٍّ جماعيّ يُسائل، يُقوّم، ويُجدّد.

ختامًا، النقد، كما فهمه سعاده، هو ممارسة عقلية وتربوية وأخلاقية، تشترط وعيًا بالعقيدة، وحرصًا على وحدة الحركة، وإيمانًا بأن النهضة ليست حالًا ثابتًا بل مسارًا دائمًا من التصحيح والتجديد. وما لم يتمكّن الحزب من احتضان النقد ضمن مؤسساته وأخلاقياته، فإنه إما سيفقد قدرته على التجدد، أو سيتعرض للتفسخ من الداخل. إن التحدي الحقيقي اليوم لا يكمن في النقد ذاته، بل في كيفية **تنظيمه وتثقيفه وتأطيره**، ليظل كما أراده سعاده: **وسيلة بناء، لا معول هدم.**

عودة إلى الرئيسية

إشكالية النقد في الحزب السوري القومي الاجتماعي

من ضمن سلسلة المحاضرات الشهرية التي تنظمها الندوة الثقافية المركزية في عمدة الثقافة والفنون الجميلة، قدَّمَ الأمين الدكتور نسيب أبو ضرغم في الثامن والعشرين من آذار المنصرم محاضرة بعنوان "إشكالية النقد في الحزب السوري القومي الاجتماعي". تجدون نصها مباشرة بعد الكلمة الافتتاحية لرئيس الندوة الثقافية المركزية الأمين الدكتور إدمون ملحم، التي قدّم بها المحاضر. وفي ما يلي ما جاء في كلمة الدكتور ملحم:

كلمة رئيس الندوة الثقافية

الأمين ادمون ملحم

أهلاً وسهلاً بكم جميعًا في هذه الندوةِ التي نناقشُ فيها إشكاليّةَ النقدِ في الحزبِ السوريّ القوميّ الاجتماعيّ، وهي قضيّةٌ جوهريّةٌ تمسُّ صميمَ حياتِنا الحزبيّةِ ومسيرتَنا النضاليّةَ، وترتبطُ بتطوّرِ الفكرِ والأداءِ والمؤسّساتِ، وباستمراريّةِ النهضةِ القوميّةِ.

فالنقدُ البنّاءُ ليس ترفًا فكريًّا، بل ضرورةٌ تضمنُ تصحيحَ المسارِ وتعزيزَ الوعيِ والانضباطِ. وهو ليس مجرّدَ حقٍّ، بل مسؤوليّةٌ تفرضُها الحاجةُ إلى التحليلِ والتطويرِ والتصحيحِ. لكن، لكي يكونَ النقدُ أداةَ بناءٍ لا معولَ هدمٍ، لا بدَّ أن يكونَ منهجيًّا، عقلانيًّا، وهادفًا، بعيدًا عن الفوضى والمزايداتِ.

الحزبُ الحيُّ هو القادرُ على مراجعةِ ذاتِه دونَ أن يفقدَ بوصلتَه، فكما أكّدَ سعاده، النقدُ مسؤوليّةٌ قوميّةٌ تهدفُ إلى البناءِ، لا إلى الانقسامِ. والتحدّي اليومَ هو كيفَ نجعلُ النقدَ مصدرَ قوّةٍ، لا سببًا للضعفِ، وهذا ما سنناقشُه في ندوتِنا. أتركُ الآنَ الكلمةَ لحضرةِ وكيل عميد الثقافة الرفيق إبراهيم مهنا ليقدّم لنا الموضوعَ.

عودة إلى الرئيسية

كلمة وكيل عميد الثقافة

الرفيق إبراهيم مهنا

بعد سنوات من عمل الندوة الثقافي، وفتح جملة مواضيع في العقيدة والسياسة والاقتصاد والأدب، وصلنا الى السؤال الجوهري: أي نقاش فكري تحتاج الحركة القومية الاجتماعية اليوم؟ ما هي الأسئلة الملحة والمركزية الواجب طرحها والخوض فيها؟

وقد وصلنا الى عنوانين مركزيين لعلهّما الأساس: أولا المشروع الفكري منذ سعاده وحتى اليوم، والاتجاه النقدي منذ سعاده حتى اليوم.

في حلقة سابقة فتحنا النقاش حول المشروع الفكري واليوم نفتح النقاش حول إشكالية النقد.

السؤال المركزي: هل النقد في الحزب معطّل؟ محيّد؟ محرّم؟ مجرّم؟ هل لا زالت القراءات النقدية بخير؟

- وتتفرع منها أسئلة ليست اقل أهمية: حول الأهلية للنقد؟ ومكان النقد؟ ومؤسسات النقد؟ وغاية النقد؟ والنقد والعقلية الأخلاقية، وحدود الفصل بين النقد المسؤول والتخريب؟ والشروط اللازمة للنقد كي يكون نقدا قوميا؟
- ايضا نقد ماذا؟: نقد النص، نقد السلطة، نقد التجربة، نقد المسيرة؟ نقد الخطط التاريخية؟ نقد الأدوات؟ نقد المفاهيم؟ نقد التعديلات؟ نقد الوسائل؟ التراث النقدي بعد الدراسات والأبحاث والجهود اين هي؟

نحن امام: الفكر النقدي، السؤال النقدي، الاتجاه النقدي، العقل النقدي ومنهجه؟

اختم فأقول: نحن بحاجة لست قراءات نقدية:

1. قراءة نقدية للمؤسسات النقدية في الحزب. تاريخها وظيفتها واقعها. لجنة النقد العقائدي مثلا. تاريخها عملها تعطلها معيقات عملها. هل نحتاج الى مؤسسات جديدة واضافية لم يلاحظها سعاده؟
2. قراءة نقدية للتراث الفكري بعد سعاده. ما أنجز، ما لم ينجز، دراسة تقييمية، ما هي الموضوعات التي تشكّل حاجة ملحّة اليوم؟
3. قراءة نقدية للمشروع الفكري بعد سعاده وواقعه اليوم أساسه النظري وأدواته.
4. قراءة نقدية لتجربة الحزب ومسيرته وتاريخه واين أصاب وأين فشل؟
5. قراءة نقدية للفكر القومي والأدوات المعرفية، بعد مئة سنة قطعت فيها علوم الاجتماع والاقتصاد والفلسفة اشواطا، والنقاش المترتب على هذا التباعد الزمني.
6. قراءة نقدية لكل التشريعات التي طالت دستور سعاده وما مدى صحتها وثباتها وهل بات ممكنا حسمها الآن؟
7. قراءة نقدية لمسيرة الحزب في المقاومة المسلحة والكفاح المسلح ومراجعة نقدية جدية لما حققته وما خلفته على الحزب إيجابا ام سلبا وواقع الكفاح المسلح اليوم ومستقبله.
8. جمع وتوثيق مجمل الابحاث النقدية (وهي كثيرة ومنها القيّم) المنتجة والمنشورة سابقا، وإعادة نشرها ووضعها بمتناول المهتمين.

وسنسجل لهذه العمدة فتح أبواب أساسية جريئة والدعوة الى ورش النقاش والكتابة والتحريض الفكري. اهم ما في النقد انه صانع التجدد، المراجعة والتقييم والتطوير. انه شكل من اشكال الحياة للفكر.

عودة إلى الرئيسية

-محاضرة الأمين الدكتور نسيب بو ضرغم

لقد تم اختيار موضوع النقد كأداةٍ نضالية، من حيث أنه محاولة فكرية تستهدف تشريح معطىً معينٍ، وذلك للوقوف على مدى صحة سلبياته أم إيجابياته. ذلك أنّه ليس بالضرورة أنْ تستهدف العملية النقدية الكشف عن الأخطاء والسلبيات فقط، وإنْ كان ذلك من الوجهة التطبيقية – التاريخية قد ارتبط بالعملية النقدية، بحيث جنحت هذه العملية لتكون محاولةً لكشف السيئات والأخطاء والانحرافات...

"فالنقد هو طريقة الدراسة المنضبطة والمنهجية لخطابٍ مكتوب أو شفوي، على الرغم من أن النقد يُفهمُ عمومًا على أنه اكتشاف الأخطاء والحكم السلبي، إلا أنّه يمكن أن ينطوي على الاعتراف بالجدارة. وفي التقليد الفلسفي يعني أيضاً ممارسة منهجية للشك. (https://ar– wikipedia.org)

ما نريد أن نقوله في هذه الدراسة، هو في إمكانية أن تكون العملية النقدية بكل عناصرها، جزءًا لا يتجزأ من العملية النضالية الهادفة إلى انتصار النهضة، وخاصة في حزب كالحزب السوري القومي الاجتماعي. الحزب الذي كانت كينونته في جمار المواجهات والضغوط والملاحقات على كافة أنواعها، وسط ارهاصات انتصار المشروع اليهودي في فلسطين، وما واكب ذلك وما تلاه من حروب وانقلابات وصراعات، كانت كلها من نتائج تلك الكارثة / سقوط فلسطين.

نعم، وسط هذه الكارثة المتمادية، كان حزب سعاده ولم يزل بحاجة إلى مؤسسة نقدية – دستورية، تأخذ دور الزعيم الذي يؤكد تاريخه، أنه كان بشخصه المؤسسة النقدية لكافة الأنشطة الحزبية، وهو الذي لام القوميين الاجتماعيين على

سكوتهم على الإنحراف، وإنْ بحجة النظام. وهذا يعني: أنَّ على القوميين الاجتماعيين الاَّ يردعهم النظام عن رفع الصوت كلما كانت العقيدة والقضية بخطر.

يقول سعاده في موضوع النقد:

"يجب أن نكون جريئين، فنعترف بأغلاطنا، وندرس أسبابها جيداً، إذا كنا نريد أن نحافظ على كرامتنا القومية، وأن نتقدم على الأمم الحيّة. أمَّا نسيان الأخطاء وتجاهلها، فلا نتيجة له غير البقاء حيث نحن".

نستنتج من قول الزعيم أعلاه، النقاط التالية:

1. أن لا نتهيب مواجهة الخطأ، كائنًا من كان مرتكبه، وكائنًا ما كانت المؤسسة المسؤولة عنه.
2. أن نمتلك شجاعة الاعتراف بالخطأ
3. دراسة أسباب الأخطاء والسلبيات جيدًا (ذلك أن الكشف عن الخطأ دون درس أسبابه لا يعطي النتائج الكفيلة بحماية وجودنا).
4. ربط سعاده بين وجوب وجود النقد (الإعتراف بالأخطاء) وبين ضمان البقاء كأمة حية. وهي العلاقة السببية الشرطية، التي يتوقف عليها انتصار أو موت قضية!!

فوفق ما تقدم، تكون العملية النقدية شرط وجوب إنقاذي لانتصار النهضة. ومن هنا تكتسب هذه العملية صفتها النضالية على المستوى القومي النهضوي العام. ونظراً لدقة الموضوع، فإننا سنورد قولين إضافيين للزعيم بموضوع النقد، للتأكيد على أن النشاط النقدي هو جزء أساس ومطلوب، وقد مارسه الزعيم، سواء عبر وقوفه على أنشطة الجرائد الحزبية أم على مستوى التدابير والقرارات أو الاجتهادات الفكرية. ولعل الاجتهادات الفكرية التي انزلقت عام 1946 إلى المنحى الانحرافي العقدي، تكون المثال البارز لتأكيد أهمية النقد في تصويب المسيرة النهضوية وحمايتها وتأمين شروط انتصارها.

يقول سعاده: "... **في غيابي، وعلى إثر مجيئي وأخذي الأمور بالنقد والتحليل، للقضاء على الفوضى والانحرافات التي كانت آخذة بالتفشي وتهديد مستقبل هذه النهضة العظيمة القائمة بالايمان والآم ألوف العاملين بإيمان وإخلاص.**" (المحاضرة الاولى: الآثار الكاملة – الجزء 15، ص 14)

واضحٌ النص، كيف أن سعاده إزاء حالة الانحرافات والفوضى التي باتت تهدد هذه النهضة العظيمة بادر فورًا إلى النقد والتحليل، ولم يرَ وسيلةٌ أكثر نجاعةً من أن يبدأ بنقد مظاهر الإنحراف والفوضى ليضع لها الحلول.

ويقول سعاده في مكانٍ آخر:

"... **والظاهر أنَّ الحزب قَبلَ انتشار "الواقع اللبناني" بحُكم النظام فقط... ولكن قبول هذا الخروج العقدي... يكون مسألة من المسائل الخطيرة**" ويعني" بقبول هذا الخروج" غياب النقد. (الآثار الكاملة – 1948 – جزء 15، ص 17)

ثمة سؤال يطرح نفسه: هل أن التحريض على النقد، والقيام به من قبل الزعيم، كانا خارج صلاحيات الزعيم الدستورية؟ بالطبع لا. كان العمل النقدي، عمل من صلب الصلاحيات الدستورية للزعيم، والذي ربط بين سلامة فعله وانتصار القضية القومية الاجتماعية، فهو اذن ترجمة لما ورد في نص قسم الزعامة:

".... وعلى أن اكون أمينًا للمبادئ التي وضعتها وأصحبت تكون قضية الحزب السوري القومي الاجتماعي".

ووفقاً لما تقدم نقف عند الحقائق التالية:

أ- النقد شرط وجوب للإنتصار

ب- لا رادع أمام السلطة المسؤولة عن النقد في وجه أية حالة حزبية تشكل خطرًا على القضية القومية... حتى ولو كان النظام الحزبي.

ت- الزعيم كان يمارس العمل النقدي عملاً بقسمه وسلطاته الدستورية.

وثمة سؤال آخر يطرح نفسه: إذا كان الزعيم يقوم بالعملية النقدية بموجب سلطاته الدستورية الجامعة، واذا كان الزعيم قد كرس وجود ثلاث سلطات دستورية تناط بها السلطة بعده وهي السلطة التشريعية، والسلطة التنفيذية، والسلطة القضائية، وهي سلطات دستورية، تصنع القرار الحزبي وترعاه وتشرف على تنفيذه، وبذلك يضع موضوع النقد المكرس بأقوال وممارسة عائدة للزعيم استناداً الى صلاحياته الدستورية، هو في غير موضعه الدستوري متى تعلق بالمؤسسات الثلاث الآنفة الذكر، من حيث وجهتها التخصصية وهذا لا يعطيها حق أن تكون هي صاحبة الولاية النقدية، وذلك لسببين:

1 – من الوجهة المنطقية: لا يمكن أن تكون الجهة الناقدة، هي عينها الجهة النافذة لفعلها.

2 – إنّ قيام احدى المؤسسات الدستورية بعملية النقد لا يتوافق مع الثوابت الدستورية والقانونية العائدة لاختصاصها.

i. **دستوريًا:** ليس من نص دستوري ينيط بأية سلطة من السلطات الثلاث صلاحية النقد في الحزب السوري القومي الاجتماعي.

ii. **قانونيًا:** إن السلطات الثلاث (التشريعية والتنفيذية والقضائية) لا تلحظ مراسيم إنشائها الدستورية أية صلاحية نقدية، وبالتالي، فإنه من الوجهة القانونية، يعتبر تجاوزًا للصلاحية إقدام المؤسسة على أي عمل لا ينص عليه قرار انشائها... ومن هذه الأعمال.. النقد.

إذن: وإزاء هذا الواقع، وبعد إبرازنا للأهمية التي علقها الزعيم على ممارسة النقد وخطر الامتناع عنه في أداء الحزب وفي كافة النواحي، لا بد من أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي:

بعد غياب سعاده، ألَمْ يكن الحزب خالياً من أية سلطة دستورية، تكون هي الجهة الساهرة على سلامة الحزب والقضية، سلطة نقدية، تجد أساسها في فلسفة ربط شرطية النقد الإصلاحي بإنتصار القضية؟ استنادًا إلى قول سعاده:

أ- "... **أمّا نسيان الأخطاء وتجاهلها، فلا نتيجة له، غير البقاء حيث نحن**".

ب- " ... **في غيابي وعلى إثر مجيئي، وأخذي الأمور بالنقد والتحليل، للقضاء على الفوضى والانحرافات التي كانت آخذه بالتفشي وتهديد مستقبل هذه النهضة العظيمة**"

الإجابة نعم، بعد الثامن من تموز 1949 خلا الحزب من سلطة نقدية تواكب حركته وتسهر على حسن سيرها خاليةً من الانحرافات والأخطاء... فاقتصر الأمر على ما أتاحه النظام الداخلي للأعضاء، وعبر التسلسل الاداري، أن يوصلوا رأيهم إلى السلطات الأعلى، وهذا لا يمكن أن يعوّل عليه، خاصة في شأن خطير يتعلق بمصير النهضة، لأن المبادرة الفردية للعضو الحزبي. ليست منضبطة ومؤكدة لتواكب الصيرورة الحزبية، في وقت ينبغي أن تكون العين الناقدة دائمة الحضور، بفعل صلاحياتها واختصاصها.

وفي الموضوع عينه، (موضوع غياب المؤسسة الدستورية ذات الاختصاص النقدي)، لم يشهد الحزب عملاً نقديًا واحدًا، ما خلا، مؤتمر ملكارت عام 1969، وهو المؤتمر الذي قررته السلطة التي اخطأت في موضوع انقلاب1961-1962... وهو في كل الحالات جاء دون الحد المطلوب لانقاد الحزب السوري القومي الاجتماعي الذي توالت اخطاؤه منذ العام 1949 (بُعيد اغتيال الزعيم)، ومرورًا بالعام 1955 (اغتيال المالكي) والعام 1956 والعام 1957 وصولاً الى الطّامة الكبرى... الانقلاب ليل 1961-1962.

بالمختصر، ثمة سلطة ارتكبت الخطأ الذي كاد أنْ يكون قاتلاً، وأرادت أن تحاسب نفسها، وهذا أمرٌ غير منطقي، في حزب يعتبر المؤسسات المتخصصة والتي هي ثاني إنجازات سعاده بعد وضع العقيدة

إن حزب المؤسسات لا يُعقل أن تتم عملية النقد فيه عبر مبادرات فردية من قبل أحد أعضائه، وهي بطبيعة الحال، لا تخرج عن حدود السلطة الحزبية ورؤيتها.

لذا؛ ينبغي أن يواكب الأداء، فعلٌ نقديٌ مؤسسٌ على شرعية دستورية، تمامًا كما كان سعاده يمارس النقد مستندًا الى شرعية سلطة الزعامة الدستورية المنتوجة من التعاقد الإفرادي مع المقبلين على الدعوة، والتي بموجبها جرى استجماع السلطات الثلاث بشخصه ومستندًا أيضًا إلى قسم الزعامة عينه.

في هذا السياق، ثمة سؤال:

من هي الجهة المخولة والمناط بها القيام بهذه المهمة النقدية في الحزب السوري القومي الاجتماعي؟؟ الجواب: هو جسم الحزب السوري القومي الاجتماعي لأنه هو مصدر السلطات (المادة الرابعة من الدستور)، ولأنه الجسم الذي تلقى عليه تبعات ومفاعيل القرارات والاتجاهات المركزية الحزبية، الجسم المتجسد بمؤسسة دستورية تناط بها المهمة النقدية – النهضوية، مؤسسة تنتظم في هيكلية ودور وآلية وغاية،

إذن؛ كيف يمكن لهذه المؤسسة المشار إليها أن تقوم بهذه المهمة الأساسية في العمل النهضوي – النضالي؟؟ لقد سبق

ووضعت اقتراحًا في موضوع النقد الحزبي، ولسوف يُقدّمُ إلى اللجنة المختصة لمناقشته، وحتمًا سيكون احدى الاوراق المقدمة إلى المؤتمر القومي الاجتماعي العام القادم.

لكننا في هذه المعالجة سوف نقف عند مفاصله الأساسية.

أولاً: ينشأ في الحزب السوري القومي الاجتماعي مؤسسة دستورية، تُسمى: "المؤتمر القومي الاجتماعي للنقد الحزبي".

ثانيًا: موضوعها تلقي وتنظيم وتبويب الدراسات النقدية المقدمة إليها طيلة فترة الولاية الدستورية للسلطة الحزبية، وتحضير هذه الدراسات لتقديمها إلى المؤتمر القومي الاجتماعي العام عبر ناموسية مختصة من خلال ملف متكامل.

ثالثًا: ينعقد المؤتمر القوي الاجتماعي للنقد الحزبي قبل ستة أشهر من انعقاد المؤتمر القومي الاجتماعي العام بدعوة من رئيسه.

رابعاً: ينعقد المؤتمر القومي الاجتماعي للنقد لمدة يومين، حيث تُعرض خلالهما خلاصات عن الدراسات مع إجراء توضيحات وشروحات عليها.

خامسًا: تعرض هذه الدراسات على اللجان المختصة في المؤتمر القومي الاجتماعي العام، كلٌّ حسب موضوعه.

سادسًا: لا تقتصر الدراسات النقدية المقدمة إلى المؤتمر على المواضيع الآنية أو القريبة من زمن عقد المؤتمر، بل يتعدى ذلك الى مجمل التاريخ الحزبي والوقوف عند المفاصل الأساسية فيه، لاستخلاص العبر والدروس، وكشف حقيقة الأسباب التي انزلت بالحزب الأفشال والنكبات والانقسامات... والتي أدت إلى تأخير انتصاره.

سابعًا: يبقى للمؤتمر القومي الاجتماعي العام قبول الدراسات أو رفضها أو تعديلها، لكن حكمًا تبقى وثائق رسمية حزبية وجزءًا من ثقافتنا الحزبية.

ثامنًا: لتقديم الدراسات، شروط، تحدد لاحقًا في سياق الاقتراح القاضي بإنشاء المؤتمر ولكنها ترتكز بكل الأحوال على:

1. يجري النقد للموضوع بكل جدية وشفافية وموضوعية بعيدًا عن الشخصنة والذاتية والكيدية.
2. يجب ان تقترن الدراسة بالأدلة والبراهين ولا تعتمد على التصور والتخيل والذاتية.

هل النقد في الحزب السوري القومي الاجتماعي إشكالية؟ نعم هو إشكالية، بل هو الإشكالية الأكثر تغييبًا، والتي تتحدد بالتالي: "هل كان يمكن للنقد في الحزب السوري القومي الاجتماعي أن يمنع انزلاق الحزب إلى منزلقات كانت قاسية ومدمرة، وقد ولّدت ندوبًا في ذاكرة ووجدان القوميين الاجتماعيين؟

نعم. كان يمكن... وبالتأكيد كان يمكن.

لا شيء يُخرج الحزب من هذا الإرث الضاغط، سوى النقد المنظم، في أطر دستورية وقواعد علمية – أخلاقية تستهدف حماية النهضة كشرط لانتصارها.

بدون نقد: لا بصر، لا بصيرة ولا انتصار!

عودة إلى الرئيسية

مرسوم بإنشاء لجنة النقد العقائدي

النشرة الرسمية للحركة القومية الاجتماعية، بيروت، المجلد 1، العدد 2، تاريخ 1947/12/1

إنّ زعيم الحزب القومي الاجتماعي

بناءً على المواد الأولى والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة من الدستور، يرسم ما يلي:

مادة أولى: تنشأ لجنة مشتركة بين عمدة الإذاعة وعمدة الثقافة لفحص المنتجات الأدبية والعلمية والفكرية ومبلغ تجانسها والعقيدة القومية الاجتماعية أو مخالفتها لها، تسمى لجنة النقد العقائدي.

مادة ثانية: ترفع اللجنة تقريراً بالمنتجات الأدبية إلى العمدتين للدرس في مجلس العمد وعرض النتيجة على الزعيم للبتّ.

مادة ثالثة: تؤلف لجنة النقد العقائدي من المجازين في فهم الأصول العقائدية القومية الاجتماعية.

مادة رابعة: يمتنع المنفذون العامون ونظّار الإذاعة والمديرون والمذيعون عن ترويج أي نشرة أو كتاب غير رسمي أو غير مجاز، في نطاق المنفذية أو المديرية سواء صدر من عضو في الحزب مسؤول أو غير مسؤول أو عن شخص من خارج الحزب، ويمنعون الرفقاء من الترويج إلا إذا وردهم إشعار أو توكيد رسمي من العمدة المختصة بوجوب ذلك أو جوازه.

مادة خامسة: يُعمل بهذا المرسوم من تاريخ تبليغه.

مادة سادسة: يُبلّغ لمن يلزم وينشر ويحفظ.

صدر في 26 نوفمبر/تشرين الثاني 1947

الإمضاء: الزعيم

عودة إلى الرئيسية

"لجنة النقد العقائدي"

حاجة فكرية ملحّة في زمن التفلت

بقلم الأمين احمد أصفهاني

مع مطلع العام 1947، نشر سعاده في جريدة "الزوبعة" الصادرة في الأرجنتين (العدد 88، تاريخ 20 كانون الثاني 1947) قراءة نقدية لكتاب "تاريخ سورية السياسي" الذي وضعه باللغة البرتغالية إدوارد سعاده (شقيق الزعيم). ويسجّل سعاده في المقال جملة من الملاحظات المنهجية والتاريخية، ليختمها بالقول: "وقد غلط المؤلف بعدم عرض مخطوطته على أحد من المفكرين في النهضة السورية القومية الاجتماعية ومن المطلعين في الشؤون التاريخية، وبعدم استشارته في بعض القضايا التي اطلاعه فيها قليل. ويزيد غلطه ثقلاً أنه وسم كتابه برمز الزوبعة وألوان العلم القومي الاجتماعي الذي يحمل على الظن أن كتابه معبّر عن الحركة السورية القومية الاجتماعية وصادر عنها...". (الأعمال الكاملة، الجزء السابع . صفحة 193).

نستخلص من هذه العبارات الختامية نقطتين حيويتين تتعلقان بآلية التعامل الحزبي مع ما ينشره القوميون الاجتماعيون في المجالات الأدبية والفكرية والسياسية والتاريخية، وهما:

1 . حث المؤلفين على استشارة ذوي الاختصاص، لما يحققه ذلك من مصداقية. إضافة إلى تجنب الأخطاء التي قد تُفقد العمل قيمته لدى القراء. ولا تعني "الاستشارة" فرض رقابة مسبقة على المؤلف بقدر ما هي وسيلة للمساعدة على بلوغ الأدق والأفضل.

2 . مراقبة مدى تأثير مضمون الكتاب على الحزب السوري القومي الاجتماعي. إذ قد يربط بعضهم بين المؤلف القومي الاجتماعي وبين الحزب. وفي هذه الحالة، سيتحمل الحزب تبعات محتويات الكتاب سلباً أو إيجاباً.

ويشير الدكتور سليم مجاعص إلى ناحية أخرى مهمة تنشأ عن مثل هذه المواقف. ويقول في مراسلة خاصة إنه من المفيد استخلاص دروس واضحة من كل مروية عن سعاده. فمسألة إدوارد سعاده وحثه على التشاور تعطينا درساً واضحاً وهو ضرورة التعامل مع النشاط الثقافي بجدية وبقدر كبير من المسؤولية، خصوصاً حينما يتعلق الأمر بمواضيع لها مساس دقيق بالقضية القومية. ويتشعب عن هذه المسألة سؤال حول عدم تنكب أي قومي اجتماعي منذ إدوارد سعاده لكتابة التاريخ السياسي للأمة السورية.

ونعود إلى موضوعنا الأساسي لنقول إنها لم تكن المرّة الأولى التي يتناول فيها سعاده هذا الموضوع الحسّاس. ففي رسالة موجهة إلى "عضوي اللجنة المفوضة" (توما توما وإلياس بخعازي) في البرازيل، بتاريخ 10 آب 1939، تتضح رؤيته بصورة جلية إذ يكتب قائلاً: "وقد قلت لرشيد (شكور) إنه لا مانع عندي، أو عند مراجع الحزب العليا، أن يكون لبعض الأعضاء نظريات خاصة في الشؤون التاريخية أو الثقافية. ولكن هذه النظريات تظل خاصة، إذا لم تتبناها مراجع الحزب المختصة، ولا يمكن تعميمها بصورة تحمل طابع الحزب أو تدل ضمناً على موافقته. فلا مانع عند الدوائر العليا أن يؤلف الرفيق شكور كتاباً في تاريخ سورية يتضمن نظرياته، ولكن بعد صدور الكتاب ستتناقش فيه المراجع الثقافية وتبدي رأيها فيه. فإذا رأته مخالفاً للتعاليم القومية، فإنها تمنع القوميين من شرائه، وتعلن أنه لا يعبّر عن رأي النهضة القومية". (الأعمال الكاملة، الجزء التاسع. صفحة 155).

ولا يحمل هذا الكلام أية دعوة إلى ضرورة الحصول على موافقة مسبقة من الجهات الحزبية المعنية قبل السماح بالنشر. ذلك أن سعاده لا يقبل بفرض حظر أو رقابة على إبداعات القوميين الاجتماعيين، وإنما يترك لهم حرية التعبير إنطلاقاً من فعل العقيدة القومية الاجتماعية فيهم. ويبقى على المراجع الحزبية أن تلعب دوراً أساسياً في التقييم بعد النشر للإعتبارين التاليين: هل يصلح الكتاب لترويجه بين القوميين بصورة رسمية؟ وهل يتضمن ما يسيء إلى الحزب أو يناقض العقيدة القومية الاجتماعية؟

وعندما رجع الزعيم إلى الوطن، إرتأى تنظيم آلية التعامل مع ما ينشره القوميون الاجتماعيون من كتب. فأصدر بتاريخ 26 تشرين الثاني 1947 مرسوماً بإنشاء لجنة النقد العقائدي. وتقول المادة الأولى: "تنشأ لجنة مشتركة بين عمدة الإذاعة وعمدة الثقافة لفحص المنتجات الأدبية والعلمية والفكرية ومبلغ تجانسها والعقيدة القومية الاجتماعية أو مخالفتها لها تسمى لجنة النقد العقائدي". وتحدد المادة الثالثة أن اللجنة تتألف من "المجازين في فهم الأصول العقائدية القومية الاجتماعية". وجاء في المادة الرابعة: "يمتنع المنفذون العامون ونظّار الإذاعة والمديرون والمذيعون عن ترويج أي نشرة أو كتاب غير رسمي أو غير مجاز، في نطاق المنفذية أو المديرية سواء صدر من عضو في الحزب مسؤول أو غير مسؤول أو عن شخص من

خارج الحزب، ويمنعون الرفقاء من الترويج إلا إذا وردهم إشعار أو توكيد رسمي من العمدة المختصة بوجوب ذلك أو جوازه".

أما المادة الثانية التي تركناها للأخير فقد جاء فيها: "ترفع اللجنة تقريراً بالمنتجات الأدبية إلى العمدتين للدرس في مجلس العمد وعرض النتيجة على الزعيم للبتّ". وسنعود إلى هذه المادة لاحقاً، نظراً إلى أن القسم المتعلق بالزعيم لم يعد معمولاً به.

تؤكد لنا النصوص المنشورة أعلاه، وذروتها مرسوم لجنة النقد العقائدي، أن سعاده لم يتصوّر لحظة من اللحظات أن ينشأ في الحزب جهاز شرطة ثقافية يراقب نتاجات القوميين الاجتماعيين قبل ان تجد طريقها إلى النشر. ومع ذلك حدث في مراحل مختلفة من تاريخ الحزب أن قامت عمدة الثقافة (أو الإذاعة إن لم يكن هناك عمدة للثقافة) بإلزام الباحثين القوميين الاجتماعيين بالحصول على إذن مسبق قبل النشر... وبكلام صريح: القرار النهائي سيكون بيد المؤسسة ممثلة بشخص العميد أو بلجنة معينة لهذا الغرض. وكيفما نظرنا إلى الأمر، فهذه هي الرقابة بعينها!

عرف الحزب على مدى أربعين سنة ونيف أنماطاً متنوعة من الرقابة المسبقة على ما يريد الكتاب القوميون نشره. وظلت الأمور على هذه الوتيرة إلى أن أصدر عميد الثقافة والفنون الجميلة رجا اليازجي بتاريخ 8 كانون الثاني 1993 التعميم رقم 61/2، وألغى بموجبه الرقابة المسبقة على النشر والتي كانت تمارسها عمدة الثقافة على هامش صلاحياتها الدستورية. يومها أثارت هذه الخطوة ردود فعل في الصف الحزبي، بحيث وجد العميد نفسه مضطراً إلى إصدار توضيح بتاريخ أول أيار 1993. وأبرز ما

حمله التوضيح أن المؤتمر الدراسي النوعي المنعقد سنة 1991 رفع توصية إلى المجلس الأعلى، معتبراً أن العمدة ترتكب مخالفة دستورية في ممارستها المراقبة المسبقة. وحتى لا ندخل الآن في نقاش دستوري معقد قد يُخرجنا عن موضوعنا، نقول إن الرقابة المسبقة لم تعد معمولاً بها في الحزب... لكن خللاً كبيراً حلّ مكانها وهو غياب "لجنة النقد العقائدي" لكي تقوم بالدور الذي لحظه لها الزعيم.

مع زوال الرقابة المسبقة، بات الكتاب القوميون قادرين على النشر بلا حسيب أو رقيب، ومن دون العودة إلى المؤسسات المركزية. بعض الكتابات، خصوصاً الأدبية منها كالشعر والرواية والقصة القصيرة والمسرحية، لا تثير إجمالاً إشكالات تستدعي التقييم والمحاسبة. ذلك أن الذائقة الشخصية للنصوص الإبداعية تختلف من شخص إلى آخر، وبالتالي فإن التقييم يكون محكوماً بتلك الاعتبارات. لكن هذا لا ينطبق مطلقاً على الأبحاث التي تمس عقيدة الحزب ونظامه وسياساته وتاريخه، لأنها جوانب ذات آفاق عامة تتجاوز المؤلف بحد ذاته. ونحن لا نتردد في

القول إن هذا النوع من الكتابات يرتبط بمصير الحزب في ماضيه وفي حاضره... وأيضاً في مستقبله.

يجب أن نُقّر بأن الوضع الحزبي الداخلي خلال العقود الثلاثة الماضية كان عاملاً أساسياً في فوضى النشر، وفي تفلت الغالبية العظمى من المؤلفين القوميين. فالعمدات المختصة إما مشلولة تماماً، أو أنها فقدت السيطرة على آلية التعاطي النظامي مع الباحثين. وطبعاً لا ينبغي إعفاء هؤلاء المبدعين من مسؤوليتهم، لأن كثيرين منهم فقدوا الثقة بالمؤسسة الحزبية وأصبحوا خارج الانتظام الإداري. وعندما تنتفي المرجعية المتمثلة بلجنة النقد العقائدي، فإن الفردية المقيتة تتحول إلى المقياس الوحيد لتقييم الأعمال المنشورة.

ونحن لا نقصد فقط الأعمال الفكرية التي تحتمل الاجتهاد وتنوع الآراء. بل تقلقنا المعلومات الخاطئة والمضللة التي انتشرت أخيراً، خصوصاً في مذكرات المسؤولين وبعض الرفقاء. وقد لاحظنا تناقضات فاقعة في رواية الحادثة ذاتها بين رفيق وآخر. بعضها وقع سهواً، لكن بعضها الآخر مُغرضٌ ومشبوه وله غايات تضر بمصلحة الحزب. ولنأخذ أمثلة على ما نقول:

- نموذج الغرضية: يكتب أحد الرفقاء أن يوسف السودا سفير لبنان في البرازيل "سهّل" لسعاده الحصول على جواز سفر للعودة إلى الوطن على رغم وجود تعليمات معاكسة من الحكومة اللبنانية. بينما يؤكد كتاب آخر أن السودا رفض بشدة إصدار جواز سفر للزعيم، وأن القنصل هكتور خلاط هو الذي غض النظر فصدر الجواز باسم أنطون سعاده مجاعص!
- نموذج الخطأ الناجم عن تسرع أو جهل: الأمين الراحل مصطفى أرشيد أنتخب رئيساً للحزب بعد الأمين الراحل أسد الأشقر سنة 1958. والحقيقة أنه انتخب سنة 1956، وتوفي بعد أشهر بمرض عضال.
- نموذج التناقض في سرد الحدث، ونموذج الخبر المشبوه: خلال تواجد الزعيم في ألمانيا سنة 1938 وهو في طريقه إلى القارة الأميركية، رتبت له مديرية برلين لقاء مع مسؤول ألماني رفيع. لكن في كتاب آخر يزعم مؤلفه القومي الاجتماعي أن سعاده التقى هتلر!
- نموذج الغموض في الأحداث التاريخية: العلاقة الغريبة مع أديب الشيشكلي، هل كان عضواً في الحزب؟ هل صحيح ما ذكره أحد المؤلفين من أن واشنطن حرضت الشيشكلي على "احتلال" لبنان بالتعاون مع الحزب السوري القومي الاجتماعي؟

... وغير ذلك كثير كثير!

هذه الفوضى "غير الخلاقة" تستلزم، وعلى وجه السرعة، قيام "لجنة النقد العقائدي". وحيث أن الزعيم لم يعد موجوداً للبت بالموضوعات المطروحة، فإننا نعتمد العقل الجمعي القومي الاجتماعي المنطلق من المبادئ بوصفه المقياس الرئيسي. إن الغاية من "لجنة النقد العقائدي" ليست منع المؤلفات أو إخضاعها للرقابة، ولا نريد محاكم تفتيش معاصرة تستمتع بإحراق الكتب "الهرطوقية"... أبداً. المهمة الملحة التي نتصورها لهذه اللجنة تتمثل بمتابعة ما يصدر عن الحزب، بأقلام قومية أو غير قومية، بهدف توضيحها أو تصويبها أو نفيها أو انتقادها كي لا تصبح حقيقة مسلماً بها!

عودة إلى الرئيسية

النقد كوسيلة بناء في حزب النهضة السورية القومية الاجتماعية.

بقلم الرفيق المحامي غسان مرعي

عرف سعاده الحزب بانه "فكرة وحركة تشملان حياة أمة باسرها "وبني الحزب اساسًا على فكرة نقد ونقض وتمييز لإرساء مفاهيم الانسان الجديد والنظام الجديد الذي يشكل نقيضًا او نقدًا لمعظم ما كان سائدًا قبله. وشدّد سعاده على اعتماد العقل والعقلانية والابتعاد عن الجمود حتى في القواعد الفكرية الاساسية معتبرًا ان المبادئ كلها "نقاط انطلاق للفكر". لا سجنًا له وان التطور هو الحتمية الوحيدة حتى في مفهوم الأمة " فقد يصبح العالم أمة واحدة، ومن يدري."

والحزب ليس عصيًا على التطور "فالعقل هو الشرع الأعلى والأساسي." (سعاده). و"للأفكار أجنحة" (ابن رشد).

وبعد مسيرة تقارب القرن زمنًا مليئة بمواقف باهرة وعثرات ونكبات هائلة وخاصة اليوم في ظل الانهيارات الكبرى للمفاهيم والتغيرات الكبرى على صعيد العالم عامة والأمة بالأخص. والأوضاع الحزبية المزرية والتشكيك الحاصل الذي وصل الى حد النقض العقائدي احيانًا لا بد من الاتجاه الفعلي نحو علاج ذلك.

ان النقد في الحزب لازم مسيرته منذ تأسيسه بل كان من صميم تلك المسيرة وطروحات الحداثة والتغيير والنقد والنقض لازمته واتخذت احيانًا صورًا ايجابية وغالبًا مواقف سلبية.

ومفهوم النقد الأساسي لغة وممارسة هو "تمييز الجيد من الرديء". ومهنته الأساسية هي "التقييم".

والنقد أنواع: سلبي وايجابي. بنّاء وهدّام. نقد ذاتي او خارجي (الآخر).

ومن شروط الناقد ان "يمكنه التمييز والحكم بين الجيد والرديء وان يكون خبيرًا في المجال الذي ينقده." (ويكبيديا) كون النقد الجاد البنّاء هو "اداة الوصول للجمال المثالي والكمال التام." (افلاطون.)

وبهذا المعنى فان عملية النقد والنقض ليست طارئة على الحزب ولا مستجدة.

وسبق للزعيم ان وضع آلية تنظيمية لعمل المؤسسات وآلية لتقييم عملها ونقدها "فلكل رفيق حق ابداء الرأي" انما ضمن اطر محدّدة منعًا للفوضى. (المادة 8 من الدستور).

ومع ان الزعيم لم يقم بإعداد مرسوم بإنشاء المجلس الأعلى لدقة ذلك. انما حدَّدَ له صلاحياته في المادة 10 من الدستور لجهة: "إبداء الرأي واعطاء المشورة في شؤون الحزب الخطيرة ولتقرير سياسة او خطة فاصلة او حل مشكل ذي نتائج خطيرة."

وهذا النهج الديموقراطي النقدي البنّاء ارساه الزعيم في القانون الدستوري رقم 4. فان كانت هيئات المديريات والمنفذيات تعيّن بقرار اداري فان لجنة المديرية ومجلس المنفذية يتم انتقائهم من قبل الرفقاء بالاقتراع السري اي بإرادة الرفقاء.

ومن صلاحيات لجنة المديرية التي تجتمع إلزاميا مرتين كل شهر دراسة شؤون المنطقة التابعة لنطاقها واعطاء المشورة وابداء الملاحظات في معالجة شؤونها ونقد كل تدبير اداري غير مستحب وان ترفع للمنفذية تقريرًا بذلك.

ومن صميم صلاحية مجلس المنفذية درس كامل شؤون المنطقة واعطاء المشورة ودرس المشاريع والتدابير ومراجعة مالية المنفذية بشكل متشدّد (المال). ورفع تقرير لمجلس العمد والمجلس الأعلى .

حتى الزعيم يمكن للعميد مناقشته وابداء الرأي المخالف في المسائل التنفيذية. (المرسوم الدستوري عدد 1).

هذا في النصوص انما في الممارسة؟؟

أولى الملامح النقدية الهامة كانت خلال وجود الزعيم في مغتربه القسري وشكلت حالة نقضية انحرافية عالجها حضرة الزعيم بالحوار والنقاش والبتر عند اللزوم. ولم تترك تدابيره اي ذيول او أثر لأنه الزعيم.

بعد غياب الزعيم كانت انطلاقات متعثرة وتم صياغة المرسوم عدد 8 المتعلق بتركيب المجلس الأعلى والذي شكَّلَ خروجًا عن الفقه الدستوري عند سعاده وانخرط الحزب بالأنظمة الرديئة في لبنان والشام وعاد للواجهة من اقصاهم الزعيم وبدأ التحول بحركة النهضة من حالة نضالية صراعية الى حالة سياسية هشة تقليدية وكانت محاولات النقد آنذاك خجولة لم تهتم بها السلطة الحزبية. يستنتج ذلك من مذكرات بعض الرفقاء ونقدهم لسياسة الحزب العامة خاصة الانغماس بحلف بغداد والبيان السياسي المعبّر عنه او فتنة 1958 وخطة انقلاب 1962. او لتصرف بعض القياديين الى ان انفجرت أزمة الراحل جورج عبد المسيح فأصبح معظم النقد تشهيرًا متفلِّتًا عن الأصول الدستورية والعقائدية وان استغلت شعاراتها.

وكانت كارثة المحاولة الانقلابية في لبنان فجر أول يوم من عام 1962. التي رغم البطولات ومواقف العز لمعظم الرفقاء والقيادات فإنها شكّلت نكبة كبرى ماديًا ومعنويًا وسقوطًا لبعض القيادات وحاملي الرتب وعلى أثرها حصلت أوسع حملة نقدية في الحزب طغت محدثة تغييرًا هائلا في مؤتمر ملكارت ثم توجت بالقرار الظنّي في المحاولة الانقلابية وإدانة من يجب إدانتهم.

شكل مؤتمر ملكارت والقرار الظني حالة نقدية بناءة رغم شوائب بعض المقررات. انما سرعان ما تمكنت السلطات من الانقلاب على تلك المقررات وعلى احكام القرار الظني معطلة عملية النقد البناء ممسكة بخناق الحزب منقلبة على مناقبيته فحصلت نتيجة ذلك عدة حركات اتخذت طابعًا سلبيًا وتنظيمات سرية وكليكات وحركة منفذين وغيرها وفي غياب دور المؤسسات كحاضنة لحرية الرأي وكمسؤولة عن تطبيق الدستور لهذه الجهة وبدأت بذور الاستقواء بالخارج ضمنًا التي بدأت خجولة في الخمسينات تتخذ وجهًا سمجًا وعلنًا وأدت الى خضوع الحزب لحالات الغرف السوداء المتعددة الولاءات والتي في صميم عملها خنق ومنع اي حركة نضالية حرّة

مستقلة وأدت الى ظهور حركة اصلاحية هامة (الشهيد ابو واجب) ضربت في مهدها من خارجها وشوهت من داخلها وتم ابتعاد نوعيات حزبية هامة والى انقسام الحزب انقسامًا عموديًا ومناقبيًا وتنظيميًا والى انهيار أخلاقي تنظيمي مرير تمثل بتبعية أمنية مخابراتية وبنهج استقصائي ودموي ترك بصمته رغم مظاهر الوحدة الهشة أواخر السبعينات من القرن الماضي وصولا الى ضرب أعظم ظاهرة بعد ظاهرة الزعيم أعني بها المقاومة الوطنية اللبنانية التي اطلقها وقادها بعض قيادات الحزب فتم قمعها والقضاء عليها واغتيال قادتها على يد من يجب عليهم حمايتها ولم تتمكن قيادات الحزب من اتخاذ مواقف جريئة وانقضت زمرة مرتكبي الجرم على الحزب مسيطرة عليه بدعم قوى خارجية وبسكوت القيادات وخضوعها بعد ممانعة شكلية. وما زالت آثار ذاك الزلزال مدوية وما حالة الحزب اليوم الا هزات ارتدادية لها.

السؤال:

هل كانت تلك النكبات تحصل لو كان هناك ممارسة فعلية لمفهوم المؤسسات وسماع الرأي الآخر والرأي البناء والنقاش في الشؤون الخطيرة وكيفية معالجتها؟

لماذا لم تطبق القيادات المتعاقبة الدستور لجهة ابداء الرأي وصلاحيات لجان المديريات ومجالس المنفذيات؟

لماذا لم تأخذ المجالس المؤسساتية دورها خاصة في مجلسي العمد والأعلى؟

هل لنقص ما في الدستور وهل العلة فيه؟

ام ان بعض ناقدي الدستور والأصول الحزبية التنظيمية يغيب عن ذهنهم المبدأ القومي الاجتماعي الأساسي أعنى به الأخلاق "التي هي في صميم كل نظام يمكن أن يكتب له ان يبقى"؟

وهل ان بعض الناقدين خاصة من قبل بعض القيادات يريدون إلقاء اللوم على العقيدة والدستور تبريرًا لفشلهم وسوء قيادتهم؟

ما هي الآلية السليمة التي تضبط السلوك النقدي في اطاره الصحيح خاصة في هذه الظروف من الميعان والتفلّت التنظيمي العقائدي التي أدت الى شلل المؤسسات وظهور حالات تنظيمية او شبه تنظيمية بشعارات متعددة والى خطورة انحراف عقائدي واصبحت تشكل حالة نقد سلبي هدّام بل حالة نقض. حتى تكاد تحسب الحزب العام "حالة مشاع في حارة كل من ايده له". فهذا يحتكر السياسة وذاك المال وآخر الثقافة وغيره الفكر، ولم يعد الهم الوجودي النهضوي هو الأساس سوى بمحاولات فكرية اعلامية محدودة.؟

كما ان معظم حالات النقد اليوم هي حالة جلد ذاتي ولا قدرة بنائية لها وبعض الناقدين مع الأسف يهرفون بما لا يعرفون ويتخبطون في مجالات ليسوا مختصين فيها ولا علم لهم بها انما يستسهلون التخبيص ويزدادون منه اذ وجدوا واحدًا يصفق لهم او يتملقهم.

حتى يكون هناك حالة نقد بناءة للنهضة يقتضي ان يكون هناك بالأساس حزبا نهضويا بمؤسسات فاعلة ضابطة. وان يتم التقيّد بالأسس التنظيمية المؤسساتية وان تقوم تلك المؤسسات بواجباتها.

فأي نقد يبني في ظل هذه الحالات واي معنى فعلي بناء له؟

المهمة الأساسية اليوم هي صيانة وتفعيل حزب النهضة بمؤسساته كافة خاصة التي تكفل حرية الرأي والتعبير والمناقشة بعملية نقد ذاتي مستمرة بناءة من اصحاب خبرة واختصاص وضمن اطار الضوابط الدستورية.

عودة إلى الرئيسية

مقدمات منهجية لنقد الحزب

بقلم الرفيق الدكتور عبد الرحمن قوطة

طالما في النقد الحر يمكن وجود العقل (ايمانويل كانت 1727 - 1804)

العقل في الانسان هو الشرع الاعلى والشرع الاساسي (انطون سعاده 1904-1949)

عندما طلب مني الامين ادمون ملحم الجزيل الاحترام مساهمة لنقد الحزب لمجلة (الندوة) انما طلب مني تأليف كتاب عن الحزب او عدة كتب عنه. فحزب تاريخي كالحزب القومي لا يمكن احاطة نقده بحزمة من الصفحات.

قبل إطلاق العنان لنقد الحزب أرى من العدل والانصاف الاشادة والاطراء بالحزب القومي فهو حزب مثل نقطة مضيئة في تاريخ الأمة السورية المظلم، بعقيدتها الوضعية العلمانية ومفاهيمه التنويرية ومطالبه في التغيير السياسي والاجتماعي. وقد تكون هذه الفرادة هي ذاتها مصدر عثراته في مجتمع لم يتفهم غاية الحزب التحريرية النبيلة وهو بدوره لم يتفهم مدى تشبث واستشراس الانحطاط والتخلف في بنى هذا المجتمع ومكوناته من بشر بمفاهيمهم وموروثاتهم من عادات وتقاليد عصيّة على التغيير.

لكن ما النفد؟ وما هو مفهومنا لنقد الحزب؟

ومعناه الازمة. (krisis) الفرنسية بأصلها اللغوي تعود الى الاسم اليوناني (critique)لفظة النقد

فعندما يظهر نقد تكون سبقته في الظهور مشكلة أو أزمة أو شيء ما لم يعد يسير كما يجب مما يوجب نقده لتصحيح مساره ...

ليس الهدف من نقد الحزب الوصول الى الكلمة النهائية (الفصل) في ازمة الحزب وانما الاضاءة على بعض جوانب هذه الازمة (الانقسام أحد جوانبها) والسؤال عن اسبابها، مما نعتقد انه مشروع نظريا ومفيد علميا، اذاً نقد الحزب هو بحث في ازمة الحزب وممارسة حرية التفكير في اسبابها والمجاهرة والاعلان عن هذا التفكير ليكون بمتناول الجميع.

ولنقم بتصحيح مفهوم: نقد الحزب لا يعني نقدا لكل الحزب فلا يستطيع أحد ان ينتقد شهداء الحزب الذين ضحوا بحياتهم من اجل انتصار مبادئ الحزب وغيرهم من القوميين ممن ضحى بعائلته ورزقه وماله من اجل الهدف ذاته. فلهؤلاء الحق في واجب تمجيدهم وتكريمهم لا نقدهم.

نقد الحزب تعبير مجازي او رمزي يقصد منه نقد (سلطة الحزب) فالأزمة او الازمات صناعة سلطة (مركز الصراع) لا صناعة اعضاء وحتى عندما نتناول انقسام الحزب بالدراسة فاننا نتناول سلطة الحزب (مركز الانقسام). الانقسام لا يحصل في كامل الحزب. السلطة الحزبية هي التي تنقسم على نفسها اولا، لا الحزب. بانقسامها تشق الحزب اذ بعد الانقسام يتوزّع القوميون على أطراف السلطة المنشقة. لطالما كان القوميون موضوع (طاعة) لا موضوع (امرة). في مراكز الامرة والهيمنة ينشأ الصراع والانقسام، لا في مركز الطاعة والقبول.

اذاً نقد الحزب هو (محكمة) لسلطات الحزب المتعاقبة. محكمة تحاكمها فكرياً ومعنوياً، اذ ليس في احكامها عقاب مادي بل معنوي ومعرفي إذا صح التعبير. وفي المبدأ من يرفض الخضوع لمحكمة النقد سواء أكان حزباً أم جماعة أم دولة هو كالعاصي على القانون والرافض للانصياع له. عدم الخضوع للنقد هو هروب وتملص من المراقبة والمحاسبة ويولّد شكّاً وارتياباً (شبهة) باستقامة وصلاحية ونزاهة القائم بالأعمال.

في عالم اليوم من اهم المبادئ ان تكون الخطط والاستراتيجيات (شفافة) وواضحة ومعلومة، فما هو سري ويجري في الخفاء عرضة للشبهة والارتياب. لا يحظى بالاحترام العميق الا من يخضع اعماله وخططه وبطيبة خاطر لمحكمة النقد، اذ لا يوجد أي شيء مهما بلغت أهميته من جهة فائدته ونفعه ومهما بلغت قدسيته أو بلغ (جلاله) يستطيع الهروب من فحص العقل ونقده، كذلك لا يستطيع شخص مهما كانت مكانته أو قوة جبروته أن يعطل نقد العقل.

في هذه العجالة، وكما يشير العنوان سنكتفي بوضع بعض المقدمات في منهج نقد الحزب وهذه المقدمات ليست أكثر من اثارة انتباهات لبعض النقاط والمواضع في التاريخ والسياسة والعقيدة. وفي البداية نشير الى أنّ حصر النقد بالمقاربة الاخلاقية وردّ كل مشاكل الحزب وانقساماته الى (قلة اخلاق) وفساد بعض متولّيه من قادة، دليل على عجز وقصور دراسي (وبحثي أو تحليلي) عن اكتشاف الاعطاب البنيوية الحقيقية التي عصفت بكيان الحزب، كما هي تغطية لهذا العجز بالاتهام السهل والطعن بأخلاق فلان أو علتان ...

وسؤال المقدمة: لماذا الان بدأت تغزو العقل القومي الاجتماعي وبإلحاح فكرة نقد الحزب.

وقد يكمن الجواب في امرين:

* الشعور بالحاجة الى تصحيح الذات وتقويمها بعد حوالي المئة عام على التأسيس.

* الشعور بمرارة الفشل: فبالرغم من وقفات العزّ والالتزامات والتضحيات وبذل الذات والاستشهاد في سبيل تحقيق مبادئ الحزب الا ان تاريخه مليء بالفشل والانكسارات.

فحزب النهضة الذي حمل للألاف بل للملايين من فتيات وشبان الأمة السورية الآمال والاحلام بولادة فجر جديد لأمة سيدة وحرّة تسود فيها الحرية والقانون والمساواة والعدالة الاجتماعية، يبدو اليوم في الربع الاول من القرن الواحد والعشرين انه اخلف ونكر ما وعد به لحظة التأسيس في النصف الاول من القرن العشرين.

تاريخه كله كان حزمة من الافشال والخيبات والهزائم.

منذ ثورة 1949 الفاشلة التي أخمدت في مهدها وأدّت الى استشهاد سعاده (الامثولة الاسطورية). الى سنة 1955 ونكبة الحزب المروّعة في الشام، مروراً بأول انقسام هزّ كيانه سنة 1957 الى الفتنة الطائفية

في لبنان سنة 1958 التي اشترك فيها الحزب في خندق واحد مع من وصفهم سعاده ب يهود الداخل ... الى انقلاب 1961 الفاشل الذي أدّى الى نكبة قومية كبرى للقوميين من قتل وسجن واضطهاد وتشريد.

ولم يتورع بعض أطراف السلطة الحزبية من وصفه الثورة القومية الاجتماعية الثانية ... وصولاً الى الثمانينات التي توجت باهراق دماء قومية ذكية بأيادٍ قومية ... رسوا الى ما وصل اليه الحزب اليوم.

قلنا ان مقدمات النقد تستهدف السلطة الحزبية. ولعله من النادر ان تنتقد السلطة، حزبية أو غيرها ذاتها بما يعرف بالنقد الذاتي. السلطة غالبا ما تقدم دفاعاً وتبريراً لوجودها من اجل بقائها واستمرارها واستمرار تحالفاتها.

محاولة النقد الذاتي التي تكاد تكون وحيدة في تاريخ الحزب هي التي جرت في مؤتمر ملكارت سنة 1969 وهو اول مؤتمر في تاريخه وكانت تجربة الغيت فيها رتبة الامانة لكنها على العموم لم تؤدّ الى نتائج معتبرة، اذا لم نقل انها انهارت وأدّت الى فوضى عارمة داخل الحزب والى انقسامات عام 1974 ... لم تكن بنية السلطة الحزبية ولا مفاهيمها مؤهلة لتحمل اي نوع من انواع النقد مع بقائها موحدة ومتماسكة.

نقد الاحزاب من داخل الاحزاب ليس بالأمر اليسير، لأنه دليل على اشكاليات تنظيمية غالباً ما تؤدي او ترتب تشققات وتصدعات في تنظيم السلطة خاصةً إذا لم يكن في الحزب تقاليد ديمقراطية متوارثة تبيح النقد والمعارضة وتعترف بهما.

عندما انتقد غورباتشوف وهو رئيس الحزب الشيوعي والدولة الشيوعية، انتقد حزب ودولة الحزب الواحد من موقع السلطة، وأصدر كتابه (البيروسترويكا) اعادة البناء. وضمنه (الفلاستوست) المجاهرة وشفافية النقد.

انهار الحزب الشيوعي ودولة الحزب الحديدي وكانت بداية سقوط الاتحاد السوفياتي السابق وعمّت الفوضى لان البنية بأكمله لم تكن مؤهلة لتحمل النقد وقبوله.

ومن مقدمات النقد، نقد مفهوم سلطة الحزب القومي للعقيدة القومية الاجتماعية لان في مفهومها لها كشف تكوينها هي بالذات، وهذا النوع من النقد يطال " فكر " السلطة. قلنا في البداية اننا منحازون لفكر الحزب الرائد في شرق مظلم، لكن هذا الانحياز لا يعني تشويه وتلفيق الحقائق لإرضاء عصبيتنا الحزبية. العصبية القومية ليست عصبية حزبية فئوية و Yلا تحولت الى عصبية بدائية، ما قبل قومية.

في هذا الإطار أيضاً لعلّ أخطر شيء على القومية العلمانية يكمن في تكوين العلمانيين لعصبية قومية علمانية تشتغل كالعصبية الدينية الطائفية في علاقاتها بالمجتمع ومكوناته.

وهي عصبية مُلاحظة وظاهرة عند بعض العلمانيين من قوميين ويساريين وعلمانيين مستقلين. انها اشبه بتحزّب فكري خالٍ من أسس وقواعد العلمانية في روحها وجوهرها العقلاني والديمقراطي ...

ليست العلمانية القومية عقيدة ميتافيزيقية و لا هوية بديلة و لا يجوز ان تشتغل وتتصرف مثلها.

ومما يشكل مجالاً لمقدمة نقدية جوهرية كامن في النظرة الى العقيدة وفي مفهومها. فما زال البعض عالقاً في المرحلة الاطلاقية، وفي

تصور للعقيدة على انها يقين مطلق وفي هذا التصور بالإضافة الى انه يخالف مفهوم سعاده للعقيدة، فهو عالق في ما قبل ظهور فكرة النسبية كحقيقة كونية، فمبدأ النسبية فرض على " العلم " التخلي عن مفاهيم الحتمية واليقين المطلق أو الايمان الكلي المطلق. والاطلاقية تربة خصبة للتوتاليتارية ومكمن للاستبداد.

نحن نكتب هذه العجالة من المقدمات المشرعة لنقد الحزب بعد 93 عاماً على ظهور عقيدة الحزب، مبادئه وغايته وبعد 76 عاماً على استشهاد مؤسسه، في سبيل عقيدة وضعها هو. هذه المبادئ التي وضعت واعلنت سنة 1932 من اجل تحقيقها وانتصارها ليصار بعدها الى وضع واعلان غيرها ايضاً للتحقيق والانجاز فكلما " وصلنا الى قمة تراءت لنا قمم أخرى ".

ألا يجوز لنا بعد هذه المدة الطويلة، السؤال عما تحقق منها؟ أليس من المشروع السؤال لماذا لم تتحقق هذه المبادئ وتنتصر؟ لماذا لم تنجز المهمة؟ أين الخطأ؟ هل فيها ام في حامليها؟ هل لم تكن صالحة للحياة؟ هل انهارت التجربة القومية الاجتماعية التي كانت أمل الالوف بل الملايين من أبناء الأمة السورية ببزوغ فجرٍ جديد وانبثاق نظام جديد يعيد للأمة السورية سيادتها وحريتها وحيويتها وكرامتها بين الأمم؟

من المسؤول عن الفشل والضياع؟ أسئلة تستدعي أسئلة، وكلها مقدمات لنقد الحزب (سلطة الحزب).

ألا يمكن بعد هذه المدّة الطويلة من العجز عن الانجاز أن يخلص الفكر الى تقرير أن العقيدة والمبادئ لا توضع الى الابد وإذا لم تتحقق

أو تنتصر خلال فترة معلومة فانها لن تنتصر. وبالنتيجة لا يعود السعي لها يكتسب اي قيمة او معنى؟

والنقد ايضاً يستدعي النقد، الا يمكن الشك والاتهام بأن سلطات الحزب المتعاقبة بعد سعاده لم تكن تلاحق مبادئ الحزب ولا تسعى الى تحقيقها بل كانت تلاحق وتسعى الى تحقيق غيرها بعد استبدالها فعلياً مع الابقاء العلني عليها ضرورة المشهدية كصورة بهية وجذّابة مرفوعة وجاذبة " للجماهير " للتحشيد والتأييد وجمع الانصار والاتباع؟

ألا يمكن السؤال عما إذا كان الحزب بما اعتمده بعد رحيل سعاده من بناءات وأشكال تنظيمية وقواعد سلطة هي فعلاً الأشكال والبناءات الصالحة لتحقيق ما صنع الحزب من اجله، اي لبعث النهضة وتوحيد الأمة السورية؟

الاسئلة أكثر من الاجوبة بعد حوالي أكثر من تسعين عاماً على التأسيس يبدو أن الحزب بحاجة الى ورشة كبرى للتأمل والمراجعة ودراسة الذات وخاصةً بعد التحولات الكبرى التي عصفت بالعالم وبالأمة السورية، وغيرت كلّ شيء "من أصله" على مسرح الحياة ...

عودة إلى الرئيسية

ذاكرة إنتقائية - حقائق مغيّبة

بقلم الأمين احمد أصفهاني

يُنسب إلى سعاده، بعد سقوط كل من فخري معلوف وفايز صايغ وحنتهما بقسم الانتماء، قوله في العبارة التالية: "هناك عائلتان، الصايغ والمعلوف، يستخدمون الحزب كمدرسة، يمكثون بعض الوقت، ثم يتخرجون". وكنتُ سمعتها بصيغة مماثلة من قبل على لسان أحد رفقاء الرعيل الأول... إلى أن قرأتها في كتاب "سيرة غير مكتملة" الصادر سنة 2009، ويحمل ذكريات "الرفيق السابق" يوسف صايغ. كان التسجيل الصوتي باللغة الإنكليزية، وصاغته زوجته روز ماري صايغ بعد وفاته، ونقله إلى العربية مجيد البرغوثي، ونشرته "دار رياض الريّس للكتب والنشر" في بيروت.

قرأتُ الكتاب بعد صدوره بأشهر معدودات. وتمعّنت ببعض المرويات التي تستحق نقاشاً معمقاً لدحض مجموعة أخطاء مقصودة. وكالعادة، سجّلت رؤوس أقلام وملاحظات موجزة لكي أعود إليها عندما يُتاح لي الوقت المناسب. وكالعادة أيضاً ظلت الملاحظات مجرد حبر على ورق، ودخلتْ في طور الانتظار... الذي طال إلى أن قرأت رسالة من الزعيم إلى يوسف صايغ بتاريخ 10 أيلول سنة 1947 بوصفه "المفوض الإداري لفلسطين". وفي الوقت نفسه أثار أحد المواقع الإلكترونية علاقة يوسف وإخوته (خصوصاً فايز الذي تولى عمدة الإذاعة) بالحزب في فترة الأربعينات، وبالتحديد بعد عودة سعاده إلى الوطن في آذار 1947.

الملاحظة الهامة الأولى التي سجّلتها آنذاك تتعلق بالمقدمة التي كتبتها السيدة روز ماري بوكسر البريطانية الأصل، أرملة الراحل يوسف. فقد أوردت في سياق تعدادها لمشاريع زوجها الاقتصادية ودراساته وأبحاثه في هذا الحقل، العبارة التالية: "... وربما كان أول مفكر عربي اقترح استخدام النفط كسلاح سياسي"! طبعاً هذا رأي خاطئ تماماً، إذ أن سعاده كان من أوائل الذين أكدوا على دور النفط كسلاح في التصدي للمشروع الصهيوني والقوى الغربية الداعمة له. فقد نشر في جريدة "الجيل الجديد" العدد 35، تاريخ 19 أيار 1949 (لاحظوا التاريخ!) مقاله المشهور "سلاح إنترناسيوني لم يستعمل".

كانت حكومة دمشق قد وقعت على اتفاقية مد أنابيب النفط (تابلاين)، فكتب سعاده قائلاً: " إننا نتناول هنا الإفادة السياسية

القومية التي كان يمكن جنيها عن طريق المساومة الدبلوماسية، وعن طريق استعمال هذا السلاح الإنترناسيوني الفعّال المسمى امتيازات البترول (...) هذه الاتفاقية، على هذه الأسس، تشكل في أيدي الدول السورية والعربية سلاحاً إنترناسيونياً لو أحسن استعماله لحدَّ من فعالية التأييد الأميركاني الشامل لإسرائيل في كل الحقول (...) فيتضح من مجرّد تصديق اتفاقية التابلاين الأميركية أننا لم نستعمل هذا السلاح البترولي للحدّ من تأييد الولايات المتحدة لليهود في لوزان وفلسطين والأمم المتحدة (...) هذا السلاح الثمين لم نستعمله وأسلحة غيره كثيرة تبقى بدون استعمال. وننتظر، مع كل ذلك، أن نربح الجولات المقبلة في حرب الموت أو الحياة مع الغزاة الصهيونيين".

قد تكون روز ماري صايغ معذورة في عدم معرفة كتابات سعاده الريادية حول كل ما يتعلق بالمسألة الفلسطينية. لكن ما هو عذر أنيس صايغ، شقيق يوسف الأصغر، الذي راجع المذكرات ووضع مقدمة للكتاب، واستحق شكر روز ماري "لقراءته الفصول كافة وتصحيحها"! بل ما هو عذر رفيقنا وصديقنا الدكتور محمود شريح الذي حظي بالشكر أيضاً "لمساعدته القيمة في إعداد هذا الكتاب؟" فهل يُعقل أن أنيس الباحث الضليع بالشأن الفلسطيني، والذي نشط ثقافياً في رحاب الفكر القومي الاجتماعي خلال الخمسينات، يغيب عنه استشراف سعاده الاستثنائي حول دور النفط في معركة الأمة السورية ضد المشروع الصهيوني – الغربي آنذاك؟

ومن العدالة الإشارة إلى أني لم أقرأ ليوسف صايغ ما يؤيد ما ذكرته روز ماري حول سلاح النفط. ولعلها هي نفسها غير متأكدة بدليل استعمالها عبارة "... ربما كان"! غير أن هذا لا يعفي أنيس من مسؤوليته طالما أنه كان ابن القضية القومية وربيبها. قد نتفهم إذا كان الأمر مجرد ذاكرة خائنة، أو أنه لم يعطِ أهمية خاصة للعبارة فتم التعامل معها باعتبارها كلاماً عاماً لا يلزم أحداً! لكننا نخشى أن يكون هناك تجاهل مقصود، خصوصاً وأن المقاطع الواردة عن سعاده والحزب في كتاب "سيرة غير مكتملة" تتضمن تأويلات تحتمل وجهات نظر مختلفة ومتضاربة.

إنها مذكرات غنية وحميمة، "حمّالة أوجه" من كل حدب وصوب. والكتاب واحد من إصدارات عدة نشرها أشخاص كانوا في الحزب، ثم تراجعوا لأسباب متنوعة. ويبدو لي أننا لم نعطِ لمذكراتهم الأهمية التي نسبغها على مذكرات الرفقاء الذين ظلوا عاملين في الحركة القومية الاجتماعية. وهذا موقف خاطئ في مسألتين:

1 . إن مرويات الخارجين على الحزب قد تتضمن معلومات صحيحة لكنها مجهولة لدينا. فهذا يفيدنا في تسجيل تاريخ الحزب.

2 . إن بعض الذين نشروا مذكراتهم يلقون الكلام على عواهنه بطريقة مغرضة ومشوهة. لذلك فإن اطلاعنا عليها وتشريحها وتصويب ما اعتل منها هي خطوة ضرورية في المواجهة المستمرة مع أعداء الأمة.

وفي الختام نقول إن المذكرات لا تصبح جزءاً من التاريخ إلا إذا أخضعناها لموازين النقد والمقارنة، وجردّناها . أولاً وقبل كل شئ . من نزعات الأنا القاتلة.

عودة إلى الرئيسية

نشوء الأمم بين علم الاجتماع والعقيدة القومية الاجتماعية

نظّمت الندوة الثقافية المركزية في عمدة الثقافة والفنون الجميلة ندوةً بعنوان" **:نشـوء الأمم بين علم الاجتماع والعقيدة القومية الاجتماعية.**" في الجزء الأول من الندوة، قدّمت الرفيقة الدكتورة لبنى طربية محاضـرة بعنوان "**نشـوء الأمم والأنثروبولوجيا**"، على أن يُستكمل الموضوع بمحاضرة خاصة يلقيها الأمين الدكتور يوسف كفروني في الجزء الثاني من الندوة.

يمكنكم متابعة عرض الدكتورة طربية مباشـرةً بعد الكلمة الافتتاحية التي ألقاها رئيس الندوة الثقافية المركزية، الأمين الدكتور ادمون ملحم:

كلمة رئيس الندوة الثقافية

أهلًا بكم في الندوةِ الثقافيةِ المركزيةِ، المُخصَّصـةِ اليومَ لمناقشـةِ أحدِ أعمدةِ النهضـةِ القوميةِ الاجتماعيةِ، كتابِ »نشـوءِ الأُممِ«، الذي بدأَ الزعيمُ أنطونُ سـعادةُ العملَ عليهِ قبلَ اعتقالِهِ، ثم تفرّغَ لتأليفِهِ وإتمامِهِ في السّـجنِ، بين أوائلِ شُباطَ وأوائلِ أيّارَ من عامِ ألفٍ وتسعمئةٍ وستةٍ وثلاثين.

هذا الكتابُ ليسَ مجرّدَ دراسـةٍ في علمِ الاجتماعِ أو التاريخِ، بل هو بحثٌ علميٌّ اجتماعيٌّ، كما وصفَهُ سعادةُ، يهدفُ إلى الكشـفِ عن حقيقةِ تكوّنِ الأُممِ ونُشـوءِها من خلالِ تفاعلِ عواملِ البيئةِ، والمجتمعِ، والتاريخِ، بعيدًا عن التأويلاتِ اللاعلميةِ أو الخُرافاتِ الدينيةِ والعنصـريةِ التي شاعتْ في عصرِهِ.

إنَّ عنوانَ ندوتِنا اليومَ» :نشـوءُ الأُممِ بين علمِ الاجتماعِ والعقيدةِ القوميةِ الاجتماعيةِ«، يختصـرُ الصـراعَ الفكريَّ الذي خاضَـهُ سعادةُ من أجلِ ترسـيخِ الوعيِ القوميّ على أُسـسٍ علميّةٍ واضـحةٍ، تُؤمِنُ بأنَّ الأُمّةَ ليسـتْ مفهومًا شعريًّا أو دينيًّا، بل هي كيانٌ حيٌّ، لهُ شخصيّتُهُ ونفسيّتُهُ ومصالحُهُ.

يَسعَدُنا أن نَستضيفَ اليومَ الدكتورَ يوسفَ كفروني، العميدَ السابقَ لكلّيةِ العلومِ الاجتماعيةِ في الجامعةِ اللبنانيةِ، والدكتورةَ لبنى طربيه، رئيسةَ مختبرِ الأنثروبولوجيا في مركزِ الأبحاثِ في معهدِ العلومِ الاجتماعيةِ – الجامعةِ اللبنانيةِ، ليُقدّما لنا مقاربةً علميّةً ومعرفيّةً لهذا العملِ، في ضوءِ الفكرِ القوميّ الاجتماعيّ، وفي ظلِّ ما نَعيشُهُ من أزماتٍ تَستدعي فَهْمًا دقيقًا للحياةِ، وللأمّةِ، ولمصيرِها.

فأهلاً بالحضورِ، وبالمُحاضرينَ، في ندوةٍ هيَ في جوهرِها دعوةٌ إلى تعميقِ الفَهْمِ، وتثبيتِ النَّهجِ العلميّ في مُقاربةِ قضايانا المصيريّةِ.

نشوء الأمم والأنتروبولوجيا

كلمة الرفيقة الدكتورة لبنى طربية

ما سأعرضه في هذه المداخلة ينقسم إلى جزأين:

1. الجزء الأول يتناول المقاربة العلمية التي اعتمدها الزعيم في طريقة الكتابة واستنادًا إلى المراجع.
2. الجزء الثاني يعرض المقاربة الأنثروبولوجية التي ارتكز عليها الزعيم في كل فصل من فصول كتابه "نشوء الأمم.«

أولاً: المقاربة العلمية في كتابات أنطون سعاده

اعتمد أنطون سعاده في كافة كتاباته، وخصوصًا في كتابه "نشوء الأمم»، منهجية علمية مبنية على ما توصّل إليه علماء الاجتماع والتاريخ والسياسة في عصره. ويمكن رصد أبعاد هذه المقاربة العلمية على النحو التالي:

1. **الاعتماد على المصادر والمراجع**

أظهر سعاده حرصًا شديدًا على الاستناد إلى المصادر العلمية المعتمدة، سواء كانت كتبًا أو مقالات أو دراسات. لقد حرص على توثيق مقتبساته بشكل دقيق، مبيّنًا اسم المؤلف، وعنوان الكتاب، ودار النشر، ومكان النشر، إضافةً إلى سنة الإصدار. هذا النوع من التوثيق يشكّل أساسًا لأي بحث علمي معاصر، إذ يتيح للباحثين تتبّع الأصول والتأكد من دقة المعلومات.

على سبيل المثال، عندما انتشر بين بعض الرفقاء خبرٌ عن قول منسوب للزعيم بأن الدين اليهودي ليس دينًا بحد ذاته، بل ثقافة و"كنيس»، راجعت نصّ "نشوء الأمم» لأتأكد من مصدر هذا القول. وعندما بحثت في الكتاب، وجدت أن سعاده لم يُفصح عن هذا القول بنفسه، بل اعتمد على ما أورده الباحث باركر في كتابه National Character and the Factors in Its Formation. بالعودة إلى النص الأصلي باللغة الإنجليزية، تبيّن أنّ سعاده قد ترجم مصطلح Church(الذي يعني المؤسسة الدينية بكل تعاليمها وطقوسها) إلى "كنيس»، و Culture إلى "الثقافة»، وظنَّ أن شمولية مفهوم الثقافة تُضاف إليه من زاوية الأنثروبولوجيا صفة الدين. لذا عدّ سعاده اليهود دينًا بالمعنى الأنثروبولوجي، وهو ما لا ينقص من أهمية طرحه لمسألة عدم تكوين اليهود أمة. إلّا أن نسبة القول إلى سعاده بشكل مباشر كانت خاطئة، فهو اقتباس لباركر اعتمد عليه سعاد في هدم الأساس الديني لفكرة الأمة. وهذا التوثيق الدقيق الذي اعتمده الزعيم يتيح لنا كباحثين الرجوع إلى المصادر الأصلية عند ظهور أي لبس حول كتاباته.

2. عرض لائحة المراجع وتوثيق المصطلحات

في بداية كتاب "نشوء الأمم» نجد لائحة كاملة بالمراجع التي اعتمد عليها سعاده، كما تظهر في الهوامش والملاحق مختصرات لبعض التعابير وتوثيقًا علميًا واضحًا، مع ذكر أرقام الصفحات للأقوال المقتبسة. هذا الالتزام بالتوثيق يشكّل جزءًا من الموضوعية العلمية التي تميَّزت بها كتابات الزعيم، ويعكس الأمانة العلمية التي تتسم بها الأبحاث المعاصرة.

3. المنهجية الموضوعية في طرح الأفكار

لا يقتصر اهتمام سعاده على ذكر المراجع فحسب، بل يمتدّ إلى طريقة عرض النقاشات والأفكار التي توصل إليها الباحثون والمفكرون في عصره. فهو يرسم خريطة واضحة للتطور الفكري حول موضوع "نشوء الأمم»، بدءًا من النظريات التاريخية والاجتماعية القديمة وصولاً إلى أحدث ما وصلت إليه الدراسات الأنثروبولوجية في منتصف القرن العشرين. وفي مقدمة الكتاب، يؤكد سعاده على ضرورة فهم الواقع الاجتماعي وظروفه المتغيرة، ويشير إلى أن "أي جماعة تسعى إلى الارتقاء إلى مرتبة الوجدان القومي لا بد لها من إدراك طبيعة الواقع الاجتماعي وظروفه، وطبيعة العلاقات الناتجة عنه»، مضيفًا:

"دور الدراسات العلمية، وخصوصًا تلك التي تتناول الواقع الاجتماعي، ملموس في وعينا بأهميته؛ لأن الواقع

الاجتماعي بطبيعته متغير، وليس ثابتًا. ومن ثمّ، فإن الحاجة إلى دراسات متواصلة ودائمة لفهم هذا الواقع لا تقلّ أهمية عن ما كتبه الزعيم نفسه."

ومن هنا، يتبين أن "نشوء الأمم» لا يقف عند معالجة نظرية جامدة، بل هو دعوة إلى مواكبة التطور العلمي وفهم الأسس التي يؤسس عليها مفهوم الأمة في كل عصر.

4. تركيز الزعيم على منهجية الاستقراء والتحليل

إنَّ "نشوء الأمم» بصفته دراسة علمية يُوضِّح فيها سعاده للمفكرين والقوميين أهمية فهم تطور مفهوم الأمة بمَنظور موضوعي. فهو لا يكتفي بذكر التعريفات التقليدية للأمة، بل يبدأ من أصول الجنس البشري وتنويعاته العرقية، ثم ينتقل إلى الأشكال المبكرة للسلطة والدولة، وصولًا إلى التحديد العلمي للأمة. وهكذا، فإنه يتبع منهجية استقرائية تحليلية:

- يبدأ من الإنسان ككائن بيولوجي (الأنثروبولوجيا الفيزيائية)، متتبعًا تطوره الأصلي وأشكال السلالات البشرية.
- ينتقل إلى الثقافة واللغويات (الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية)، موضحًا أن ما يميّز الإنسان عن غيره هو ثقافته المشتركة.
- يعالج كذلك دور البيئة الجغرافية والاقتصاد في صياغة علاقات البشر وتطور المجتمعات.

وفي مقدمته للكتاب، يُشدّد سعاده على أن:

"أي درس يوضح الواقع الاجتماعي الإنساني في أطواره وظروفه وطبيعته ضروري لكل مجتمع يريد أن يعيش. ففي دراسة صحيحة لحقائق الحياة الاجتماعية ومساراتها، نجد أننا نجنّب أمتنا الوقوع في فوضى العقائد وبلبلة الأفكار."

وبذلك، يؤكد الزعيم أن "نشوء الأمم» لا يختص بجانب تاريخي جاف، بل هو دراسة لواقع بشري متحرك، يعكس التفاعل الدائم بين الإنسان وبيئته.

ثانيًا: المقاربة الأنثروبولوجية في "نشوء الأمم«

شكلت الأنثروبولوجيا عند سعاده أحد الأعمدة الرئيسية في تحليله لكيفية تشكُّل الأمم. ونستطيع استعراض استخدام سعاده لهذا العلم على النحو التالي:

1. تعريف الأنثروبولوجيا وأقسامها

يُمكن تعريف الأنثروبولوجيا بأنها الدراسة العلمية للإنسان، أو علم الإنسانية، الذي يهتم بدراسة تصرفات

الإنســـان وطبائعه البيولوجية وثقافاته ولغاته. ومنذ منتصـف القرن العشـرين، تفرعت الأنثروبولوجيا إلى تخصصات متعددة:

- **الأنثروبولوجيا الفيزيائية (Physical Anthropology)**: تركز على التركيبة البيولوجية للإنسان وتطوره الجسدي.
- **الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية (Cultural and Social Anthropology)**: تدرس السلوكيات والعادات والتقاليد ونظم العلاقات بين الناس.
- **الآثار(Archaeology)**: تسـعى إلى فهم ثقافة الإنســان ما قبل التاريخ من خلال التنقيب عن الآثار والمواقع التاريخية.

وقد اعتمد سعاده على هذه التفرعات العلمية لتوضيح كيف ارتبط نشوء الأمم بالتطور البشري تاريخيًا وبيئيًا وثقافيًا.

2. معالجة السـلالات البشـرية وإفلاتها من نظريات التفوق العرقي

في زمن كتابة "نشـوء الأمم» كانت نظريات السـلالات العرقية معتمدة في أوروبا وأميركا لتبرير السـيطرة الاستعمارية والتمييز العنصـري. وقد تناول سـعاده هذا الموضـوع بشـيء من الإنصـاف العلمي، فاعترف بوجود اختلافات بيولوجية تشكّلت عبر التاريخ (منذ الإنسان الأول وحتى ما قبل التاريخ)، فتكوّنت سـلالات "راقية» وأخرى "منحطة». لكنه سـرعان ما نبَّه إلى أن هذه الاختلافات لم تعد مقياسًا حقيقيًا لتمييز الشعوب بعد امتزاج السلالات

البشـرية عبر الأجيال. فحتى لو افترضـنا وجود تباينات بيولوجية بسـيطة كحجم الجمجمة مثلاً، فإنها لا تشـكّل أساسًا للتمييز العرقي أو التفاضل الفكري.

"ليس من المنطقي أن نعتمد صفات خاصة بسلالة بعينها كمقوّم للتفوّق العقلي أو الثقافي، لأن الواقع أثبت أن امتزاج السـلالات يولّد بيئة أرقى وأكثر تنوعًا واسـتقرارًا." وبذلك رفض سعاده النظريات الاستعمارية التي كانت تبني على "نقاوة السـلالة» تبريرًا للقهر والعبوديّة، وأكد أن الاعتماد على الثقافة والتفاعل بين الإنسـان وبيئته هو الأساس في فهم اختلاف الشعوب واختلاف مصائرها.

3. أثر الجغرافيا والبيئة على الثقافة والشـخصـية الجماعية

في الفصل الثالث من الكتاب بعنوان "الأرض وجغرافيتها»، يبرز الدور المركزي للبيئة في تشـكيل ثقافة أي جماعة. يقول سعاده بوضوح:

"علاقة الإنسان بالبيئة هي التي تولّد ثقافة تميّز جماعة عن أخرى، فالأرض تكيف الإنسان، وهو بدوره يكيف الأرض."

وهذه الفكرة متوافقة تمامًا مع ممارسات الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية، التي ترى أن التطور الحضري والحضارة بشكل عام نتاج تفاعل الإنسان المستمر مع البيئة الجغرافية المحيطة به. بل إن سعاده يشير إلى أن كل جماعة تكتسب "شخصية» خاصة بها نتيجة هذا التفاعل الفريد بين أفراده وبيئتهم، وهو مفهوم عادت إليه مارجريت ميد قبل أعوام قليلة من انتشار كتاب "نشوء الأمم.«

4. **تحليل البُنى الاجتماعية وأشكال الاجتماع البشري**

في الفصل الرابع "الاجتماع البشري»، يقدّم سعاده قراءة أنثروبولوجية واضحة لطبيعة الاجتماع البشري. يربط بين تكوين الجماعات ونمط تكوينها، بدءًا من الرابط الدموِي (العائلة والقبيلة) وصولًا إلى التنظيمات الاجتماعية التي تجاوزت ضيق العائلة والدم والعشيرة، حتى وصلت إلى أشكال أوسع من التماسك الاجتماعي.

- في تحليله لغاية الاجتماع، يوضح أن الهدف ليس فقط الحفاظ على النوع البشري، بل هناك تفاعل معقد بين النفس أو الدماغ والجسم والبيئة المحيطة؛ هذا التفاعل هو ما يميّز البشر عن غيرهم.
- يتتبع تطور السكن البشري من جماعات الصيد وجمع الثمار إلى المجتمعات الزراعية والصناعية، وربط ذلك بالتطور الاقتصادي وأساليب الزواج والعلاقات الاقتصادية.

بذلك، لا يفصل سعاده البُعد البيولوجي عن البُعد الاجتماعي أو الاقتصادي أو التاريخي. فكل هذه العوامل تشكّل معًا الصورة الكاملة لفهم كيف تشكّلت الأمم بمرور الزمن.

5. **دور المرأة وأثر الاقتصاد في تكوين البنى الاجتماعية**

لا يغفل سعاده عن الإشارة إلى دور المرأة في المجتمع، موضحًا أن دورها الاجتماعي مرتبط بالأساس بالاقتصاد. فهو يرى أن تراجع الروابط الأسرية لا يعود إلى تدهور الأخلاق كما يدّعي بعض المناقبيين، بل يعود إلى عوامل اقتصادية بحتة. ومن هنا، فإن دراسة البُنى الاجتماعية لا تكتمل دون فهم الوضع الاقتصادي لكل فئة من السكان ودور كل فرد في بناء المجتمع.

6. **نشوء السلطة والدولة كنتاج لأنثروبولوجيا الاجتماع**

عندما ينتقل سعاده إلى الحديث عن نشوء الدولة والسلطة، لا يعزلها عن سياقها الأنثروبولوجي. فهو يوضح أن السلطة لم تُنشأ بدورها في الدولة فقط، بل كانت تتطوّر في جميع أشكال الاجتماع البشري منذ جماعات الصيد والقبائل الزراعية. ويشرح كيف تشكّلت أنماط السلطة وربطها بالاقتصاد الاجتماعي، وصولاً إلى الدولة المدنية التي تميّز بين المدني والديني.

- يعرض سعاده مثال الدولة السورية ويبيّن كيف فصلوا بين الشريعة والدين، أي الفصل بين الحياة الدينية والحياة المدنية، وهو أمر يستحق أن ندرسه بعمق ونعمّق فيه عالميًا، لأن هذا الانفصال بين السياسي والاجتماعي شكّل جزءًا من ثقافة الأمة السورية.
- كما يناقش تطور الديمقراطية، مبيّنًا الفرق بين الديمقراطية التمثيلية والديمقراطية التعبيرية، مستندًا في ذلك إلى أدلّة علمية تتعلق بتطور الجماعات البشرية ونظم الحكم فيها. ويُعطي مثالًا حينما يصف الديمقراطية في اليونان قائلاً:

"إنه خيال سخيف، في نظري، أن يكون كل فرد من أفراد المدينة . الدولة شريكًا فعليًا في إدارة شؤونها."

ومن هنا يوضّح أن ما سمح للدول السورية بالتقدم كان الفصل بين السياسة والاجتماع، أي الفصل بين منطق الدولة المدنية والرؤية الدينية.

7. **وحدة الأمة ومعيار القطر الجغرافي**

في الفصل الأخير، يتناول سعاده مفهوم الوحدة الوطنية وتحديدها العلمي، ويركّز على أن "وحدة الحياة المجتمعية» هي الأساس الذي تقوم عليه الأمة. فيقدم معايير موضوعية وثابتة تعزِز المفهوم العلمي للأمة، بعيدًا عن الانحياز العاطفي أو التفسيرات غير المنطقية. ويؤكد أن الأمة لا يمكن أن تدوم دون وجود قطر محدد، ولهذا يعتبر دعوى أن الشعب اليهودي استطاع الحفاظ على نفسه دون أرض موطن هي قول خاطئ اجتماعيًا، لأن "من دون قطر لا توجد أمة.« ويبيّن أن هوية اليهودية هي هوية جامدة دينية خالصة، ولا تمتلك مقوّمات الأمة الحقيقية، وهذا الرأي ليس رأيًا شخصيًا لسعاده فحسب، بل هو رأي يتوافق مع بعض الباحثين العلميين الذين درسوا الظاهرة القومية. ثم يستعرض سعاده تعريفات المنظرين الغربيين للأمة، وينقد بعض المؤشرات التي اعتمدوها نقضًا علميًا، وصولًا إلى تحديده الخاص للأمة، وهو أمر ينبغي أن نستفيد منه في دراسات حول مفهوم الأمة في سوريا. بمعنى آخر، علينا نحن كقوى عمل قومية أن نبحث عن المؤشرات التي لا تنسجم مع تعريف الزعيم العلمي، ونعرضها للنقاش العلمي بهدف إزالة اللبس عن عقول السوريين.

وفي ختام تقديمه لهذا الفصل، يشير سعاده إلى تعبير "الإثم الكنعاني»، الذي استخدمه غوبينو للإشارة إلى رفض أي مقاربة قومية تربط بين الدين والأخلاق. ويذكّرنا أن

غوبينو كان يؤسّس لنظرية "الأعرق» التي استُخدمت لتبرير التمييز والاستعباد في القرون الماضية. ومن هنا، نفهم لماذا اختار سعاده استلهام هذا التعبير في سياق نقده لأية محاولة لخلط الدين بالأخلاق لصناعة الانتماء القومي.

خلاصة

لقد أثبت أنطون سعاده من خلال "نشوء الأمم» أهمية المقاربة العلمية والأنثروبولوجية في فهم تشكُّل الأمم. فابتدأ بدراسة الجنس البشري وأصوله البيولوجية، مرورًا بفحص التفاعلات الاجتماعية والاقتصادية والبيئية التي ساهمت في تطور الجماعات الإنسانية، وصولًا إلى استنتاجاته حول كيفية تكوين الأمة بوصفها جماعة بشرية على أرض جغرافية محددة.

وفي هذا الإطار، يمكن أن نستخلص النقاط الرئيسية التالية:

1. **التوثيق العلمي:** كان سعاده مثالًا في الأمانة العلمية، إذ وثَّق جميع مراجع كتابه بدقة، مما يتيح للباحثين العودة إلى المصادر الأصلية للتحقق من صحة المعلومة.
2. **المنهج الاستقرائي والتحليلي:** اعتمد سعاده على استقراء الظواهر من الإنسان الأول إلى الحضارة الحديثة، مع تحليل علمي لمنعطفات تطور السلالات البشرية وإنهاء الأساطير العرقية.
3. **دور البيئة والجغرافيا:** بيَّن كيف أن علاقة الإنسان بأرضه تُشكّل ثقافة الجماعة وشخصيتها، وهو ما تؤكده الأنثروبولوجيا المعاصرة.
4. **أبعاد الاجتماع البشري:** لم يفصل سعاده البُعد الاجتماعي عن الاقتصادي أو التاريخي، بل عالجها مجتمعةً لفهم كيفية قيام الجماعات وتطورها حتى الوصول إلى الدولة.
5. **نقد النظريات الاستعمارية:** دحض سعاده المفاهيم العنصرية التي تبرر تفوّق أمة على أخرى، وأكد على وحدة الجنس البشري وتمازج السلالات.
6. **تأكيد أهمية القطر والحدود:** حذّر سعاده من الزعم بأن الأمة يمكن أن تحيا دون أرض محددة، معتبرًا أن القطر هو الأساس في تكوين الأوطان وبقاء الأمم.

ولذلك، فإن دراستنا لكتاب "نشوء الأمم» يجب أن تنطلق من هذا الأساس العلمي والأنثروبولوجي الذي وضعه الزعيم، وأن نواصل العمل على تطويره بما يتلاءم مع المستجدات العلمية والبحثية في عصرنا. ويكفي هذا العرض لإبراز المقاربات العلمية ومركزية الأنثروبولوجيا في تناول سعاده لمسألة نشوء الأمم.

عودة إلى الرئيسية

نشوء الأمم بين علم الاجتماع والعقيدة القومية الاجتماعية

بقلم الأمين الدكتور يوسف كفروني

أسّس سعاده الحزب السوري القومي الاجتماعي سنة 1932 وأعلن عن مبادئه الأساسية والإصلاحية، التي تشكّل العقيدة القومية الاجتماعية.

خلال سجنه سنة 1936 ألّف كتاب نشوء الأمم وصدرت الطبعة الأولى سنة 1938

ويعتبر هذا الكتاب عملا رائدا في علم الاجتماع الحديث على مستوى العالم العربي.

هذا العلم ظهر في أوروبا في القرن التاسع عشر، ومنذ ظهوره تباينت فيه النظريات والمناهج المتعدّدة. وتوالت التغيّرات والتطورات في مختلف المجالات وبشكل متسارع، الأمر الذي اعتبره بعض المفكّرين نهاية مفهوم الدولة الأمة، الدولة القومية. ودخول عصر العولمة والشركات العابرة للقارات والجماعات المتجاوزة للمجتمع، إضافة إلى ظواهر التفتيت والتفكك الاجتماعي في كثير من الدول في العالم الثالث.

ما هو موقع كتاب نشوء الأمم بالنسبة لعلم الاجتماع، وهل لا يزال صالحا بعد كل هذه التطورات المتسارعة من العولمة إلى الشركات العابرة للدول، إلى عصر الأنترنت والتكنولوجيا الحيوية وصولا إلى الذكاء الاصطناعي؟

وما هي حدود علاقة هذا الكتاب بمبادئ الحزب التي تشكّل العقيدة القومية الاجتماعية؟

1-نشأة علم الاجتماع

يمكن اعتبار دراسة ابن خلدون [1332-1406م] عن العمران والعصبية في دوراتها المتكررة، بداية لعلم الاجتماع، وله السبق في ذلك على رواد علم الاجتماع الذين جاؤوا بعده ببضعة قرون، في القرن التاسع عشر.

ولكن عمل ابن خلدون كان عملا فريدا لم يبن عليه، كما كان وصفا وتحليلا للمجتمعات القديمة التي سبقت التطورات الكبرى التي شهدها الاجتماع البشري والثورات الفكرية والسياسية، التي نشأ من مخاضها علم الاجتماع الحديث .

تقول مـادلين غرافيتز في كتـابهـا عن المنـاهج في العلوم الاجتماعية:"السوسيولوجيا هي دراسة الواقع الاجتماعي. الاهتمامات الفلسـفية حول طبيعة المجتمع، والاهتمامات الأخلاقية حول سـبل الاصـلاح هي قديمة مثل التفكير الاجتماعي والسـياسـي والفلسـفي، ولكن السـوسـيولوجيا كعلم ولدت، منذ أن بدأنا ننظر الى الوقائع الاجتماعية بمعزل عن أحكام القيمة ". (Grawitz، – 2001 p79 11em edition)

ظهر علم الاجتماع مع أوغسـت كونت الذي تأثر بالعلوم الطبيعية واسـتخدم مصـطلح سـوسـيولوجيا عام 1838 وكان يريد اسـتخدام مصـطلح الفيزياء الاجتماعية ولكن سـبقه قبل عدة أشـهر كيتيليه (أوزبرن، 2005، صفحة 37)

علم الاجتماع ليس علما موحدا، فهو منذ بداياته في سـجال، وتباين في المناهج والنظريات.

تعدّدت النظريات وتناقضت في تفسيرها ومقاربتها للواقع الاجتماعي. وانقسـم علم اجتماع إلى علم بتوجيه ماركسـي في مقابل علم بتوجيه محافظ أو ليبرالي.

فكان أكثر ارتباطا بالايديولوجيا. ويؤدي دوره في الحفاظ على الواقع القائم والدفاع عنه، في كل من الكتلتين الاشـتراكية والرأسـمالية (غولدنر، 2004 ترجمة، صفحة 24)

السـوسـيولوجيا الفرنسـية مع دوركايم (نزعة عقلانية تجريبية ونزعة طبيعية)

السـوسـيولوجيا الألمانية مع فيبر (تركز على المعنى والنشـاط الاجتماعي)

روّاد السوسيولوجيا الأميركية لهم نظرة براغماتية بخصوص ميدانهم، مهمتهم هي التدخل بطريقة امبريقية مع المشـاكل العيانية. (كابان، 2010–ترجمة، الصفحات 12–13)

النزوع الى النظام والانسجام بين أجزاء المجتمع، المجتمع وحدة كلية متكاملة، والوجهة الأخرى النزاع والتوتر والصـدام. (غيدنز، الطبعة الاولى 2005، صفحة 704)

التفسير الماركسي: القوة المحركة للتغير الاجتماعي في المجتمعات الرأسمالية الحديثة هي التحولات الاقتصادية التي تعتبر جزءا لا يتجزأ من نظام الانتاج الرأسمالي.

التفسـير الفيبري: العوامل غير الاقتصـادية لعبت دورا أسـاسـيا في تنمية المجتمع الحديث. (غيدنز، الطبعة الاولى 2005، الصـفحات 709–710)

يرى ألان تورين أن المقولات الاجتماعية أصـبحت مبهمة، وبتنا بحاجة الى مقولات جديدة، لا سـيّما أن القضـايا الثقافية بلغت من الأهمية حدّا يفرض على الفكر الاجتماعي الانتظام حولها. (تورين، 2011 ترجمة، صفحة 13)

ويتحدث عن الذات الفاعلة والحقوق الثقافية. (تورين، 2011 ترجمة، صفحة 19)

1–التفكك الاجتماعي 2–تعاظم القوى الموضـــوعة فوق المجتمع: الحرب، الأســـواق، الطائفية، العنف، 3–الفردانية. (تورين، 2011 ترجمة، صفحة 36)

تراجع حركة الانضمام الى النقابات. (تورين، 2011 ترجمة، صفحة 48)

هيمنـة مجتمع المعلومـات والاتصـــالات نتيجـة تطور الانترنـت والشبكات المالية. (تورين، 2011 ترجمة، صفحة 48)

يرى بورديو أن علم الاجتماع له نظرياته وتصـــوراته ومناهجه: أطر البحـث، الأدوات والإجراءات التي تكوّن البنيـة المنطقيـة للمعرفـة الســوســيولوجية، التي ينبغي أن تتضــمن بعدا تجريبيا في مواجهة الطروحات النظرية. (ستيفان شوفالييه – كريستيان شوفيري، 2013 ترجمة، صفحة 23)

ولكنه ينطوي على ضـعف ناجم عن تأثير السياسـة وهذا ما نبّه إليه ســعاده في تعريفه للأمة كواقع اجتماعي يمكن دراســته علميا بينما تلعب الســياســة دورا مؤثرا في تباين النظر إليه داخل المجتمع بين الجماعات المتنازعة وبين الأمم.

(بورديو، 2007–ترجمة طبعة ثالثة، صفحة 16)

تميّز علم الاجتماع في مرحلة البداية، أي المرحلة الكلاسـيكية بروح النقد
للمجتمع الصـــناعي، في محاولة تقديم حلول لمشـــكلاته. (غولدنر، 2004 ترجمة، صفحة 36)

في مرحلة تالية بدأ التنظير الاجتماعي يتراجع عن هذه الرؤية النقدية الشـاملة نظريات عديدة وكلها تشـكل علم اجتماع مخصـي ومسـالم وعاجز عن النقد، (غولدنر، 2004 ترجمة، صفحة 37)

2–دافع سعاده لدراسة علم الاجتماع وغيره من العلوم

يعود اهتمام سعاده بالدراسات المتعلقة بالعلوم الاجتماعية إلى مرحلة مبكرة من حياته، قبل تأسيسه الحزب سنة 1932

كان الهمّ الأساسي لديه هو الهم الوطني والقومي وليس همّ الحصول على شهادة أكاديمية أو لقب ما.
يقول في رسالته إلى حميد فرنجية 1936

ما الذي جلب على شعبي هذا الويل؟
كنت أريد الجواب من أجل اكتشاف الوسيلة الفعّالة لإزالة أسباب الويل، وبعد درس أولي منظم قررت أنّ فقدان الســيادة القومية هو السـبب الأول في ما حل بأمتي وفي ما يحل بها. وهذا كان فاتحة عهد درســي المســألة القومية ومســألة الجماعات عموماً والحقوق الاجتماعية وكيفية نشــوئها. وفي أثناء درســي أخذت أهميـة معنى الأمـة وتعقدها في العوامل المتعددة تنمو نموها الطبيعي في ذهني. (سعادة، المجلد 8، 2001 ، صفحة 31)

من الطبيعي أن يســتند ســعاده في دعوته للعقيدة القومية على هذه الدراسات التي يشكل كتاب نشوء الأمم الذي أصدره لاحقا أبرزها.

إضـافة إلى شـخصـيته البارزة في النقد الاجتماعي والسـياسـي والديني والأدبي للمؤســســات والأفراد والمفاهيم. منتقدا الإقطاع وتحالفه مع الاستعمار، والحزبيات الدينية والسلطة الدينية المتدخلة في السياسة وأدب الكتب التجاري البعيد عن هموم وقضـــايا المجتمع والنزعة الفردية التي أصبحت مرضا وخطرا أشد من الخطر الأجنبي.
يعتبر ســعاده أن العلامـة ابن خلدون هو المؤســس الأول لعلم الاجتماع، ويعتبر أن مؤلفه نشــوء الأمم هو تأســيس لعلم الاجتماع الحديث.
ويميّز بين نشـــوء الأمم ككتاب علمي وبين كتاباته الأخرى التي تتضمّن أفكاره وآراءه الاجتماعية السياسية المتعلّقة بدعوته القومية.

ويقول أن: "نشـــوء الأمم ليس الكتاب الذي يضـــمنه أفكاره وآراءه الاجتماعية السياسية فيما يختص بإنشائه الحزب السوري القومي ودعوته القومية وخططه السياسية. بل هو كتابه العلمي الذي يشرح فيه نشأة النوع الإنساني والاجتماع البشري وتطوراته، حتى عصر الأمم الحاضر فيرى القارئ أسرار الاجتماع الإنساني منكشفة لعينيه، ويدرك حقيقة المسائل الاجتماعية وماهية الأمة وكيفية نشوء هذه الشخصية الاجتماعية.

في كتاب نشوء الأمم يضع الزعيم أساس علم الاجتماع الحديث، كما وضع في مبادئه القومية أساس بناء الأمة السورية القومي (سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 454)

يميّز سعاده بين العقيدة وبين كتاب نشوء الأمم الذي يشمل مسائل تخرج عن حدود العقيدة القومية الواضحة.
ليس في عقيدتنا القومية الاجتماعية ما يحرم العقائد الدينية، أو يحجز حرية الفكر في أي أمر من الأمور الروحية والقضايا الفكرية. ويدعو إلى عدم مزج الإيمان القومي بقضـــايا الإيمان الفردي اللاقومي.

ويقول: " ولذلك فصـــلتُ بين كتاب عقيدتنا، الذي هو المبادئ وشرحها، وكتاب نشوء الأمم وكل كتاب آخر يشمل مسائل تخرج عن حدود عقيدتنا القومية الواضحة. فالسوري القومي الاجتماعي يمتحن سـلوكه وعمله، ويحاسـب، وفاقاً لمبادئنا، ولا يمتحن ولا يحاسـب بموجب كتاب نشوء الأمم. (سعادة، المجلد 11، 2001 ، صفحة 393)

ويؤكّد على التنوّع الفكري في حركتنا ولزومه لفلاحنا، ويعتبر أنمبادئنا وشرحها هي المرجع الوحيد لتفكيرنا المجموعي.

كتاب نشوء الأمم يمكن اعتماده في سائر تطور الجماعات الإنسانية نحو كيان الأمة، ونشـــوء القومية، بما أورد من الحقائق العلمية، والتحليلات والتعليلات المفيدة ـــــ ولا حاجة لاعتماده في أية قضية عقائدية دينية تتعلق بالنفس الإنســـانية مطلقاً، وما قبل الحياة وما بعدها... (سعادة، المجلد 11، 2001 ، صفحة 393)

ويقول أيضـا: أن النظريات المتعلقة بالدين، الواردة في نشـوء الأمم ليست ضرورية ولا لازمة من قبل الفكرة الاجتماعية، التي هي أساس عقيدتنا وجوهر النهضـة. وإني، عملاً بهذا الاقتناع، لم أدخل شـيئاً من هذه النظريات في شـرح المبادئ المخصـص لعقيدتنا القومية الاجتماعية الخالصة. (سعادة، المجلد 11، 2001 ، صفحة 394)

3-منهج الكتاب وموضوعه المحوري الأمة-المجتمع

-الابتعاد عن النظريات والتأويلات الفلسفية والايديولوجية

إنّ نشـــوء الأمم كتاب اجتماعيّ علميّ بحت تجنّبت فيه التّأويلات والاســتنتاجات النّظريّة وســائر فروع الفلســفة، ما وجدت إلى ذلك سبيلاً. وقد أسندت حقائقه إلى مصادرها الموثوقة. واجتهدت الاجتهاد الكليّ في الوقوف على أحدث الحقائق الفنيّة الّتي تنير داخليّةً المظاهر الاجتماعيّة وتمنع من إجراء الأحكام الاعتباطيّة عليها.
(سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 6)

-القوانين الاجتمـاعيـة-بـالرغم من أهميـة النواميس أي القوانين المكتشفة ولكن يبقى الأساس هو الواقع الطبيعي.

"النّاموس اصـــطلاح بشـــريّ لمجرى من مجاري الحياة أو الطّبيعة نقصـد به تعيين اسـتمرار حدوث فعل أو خاصّـة من أفعال وخواصّ الحياة أو الطّبيعة، لا أن الطبيعة أو الحياة وضـــعت لكائناتها هذه النّواميس وأمرتها بالسّـــير عليها. وفي كلّ النّواميس الّتي نكتشـــفها يجب أن لا ننســـى أنّنا نســـتخرج النّواميس من الحياة فيجب أن لا نجعلها تتضارب مع المجرى الطّبيعيّ الّذي نعرفه بها. فكوننا اكتشفنا ناموســـاً أو ناموســـين من نواميس الحياة العامّة يجب أن لا يحملنا على نســـيان الواقع الطّبيعيّ ونواميســـه الأخرى، فالنّواميس لا تمحو خصائص الأنواع. وإذا كنّا قد اكتشفنا سنّة التّطوّر فيجب أن لا نتّخذ

من هذه السـنّة أقيسـةً وهميّةً تذهب بنا إلى تصّـورات تنافي الواقع وتـغـايـر الـحـقـيـقـة.
إنّ القياس كان ولا يزال مصـيبـةً كبيرةً في الأبحـاث العلميّـة الاجتماعيّة، خصـوصـاً في الأبحاث الّتي لا تجرّد علم الاجتماع من النّظريّات الفلسـفيّة، من الفلسـفة الاجتماعيّة، وهو الالتجاء إلى القياس ما أوجد شيئاً كثيراً من الخلط في المسائل الاجتماعيّة عموماً ومسألة الأمّة والقوميّة خصوصاً"

(سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 119)

– دراسة الواقع الاجتماعي
كلّ جماعة ترتقي إلى مرتبة الوجدان القوميّ، الشّـعور بشـخصـيّة الجماعة، لا بدّ لإفرادها، من فهم الواقع الاجتماعيّ وظروفه وطبيعة الـعـلاقـات الـنّـاتـجـة عـنـه.
وإنّ درساً من هذا النّوع يوضح الواقع الاجتماعيّ الإنسانيّ في أطواره وظروفه وطبيعته ضـروريّ لكلّ مجتمع يريد أن يحيا. ففي الدّرس تفهّم صـحيح لحقائق الحياة الاجتماعيّة ومجاريها. ولا تخلو أمّة من الدّروس الاجتماعيّة العلميّة إلا وتقع في فوضـى العقائد وبلبلة الأفكار.

العودة إلى مبدأ الواقع الاجتماعي في الأمة تخلصـاً من فوضـى الاعتباطية العقائدية هي في جوهرها أشـبه بعودة زينون إلى مبدأ الناموس الطبيعي. إنّ رسـالة سـعاده كرسـالة زينون إنسـانية في غايتها، وكل عودة إلى مبدأ الفكر والحياة عودة إلى الإنسـان.
(سعادة، المجلد 4، 2001، صفحة 12)

"إنّ وحدة الأمة والوطن تجعلنا نتجه نحو فهم الواقع الاجتماعي الذي هو الأمة بدلاً من الضـلال وراء أشـكال المنطق الصـرف وتراكيب الكلام."
(سعادة، المجلد 8، 2001 ، صفحة 43)

–المدرحية هي عقيدة تفسير التطور الإنساني

ترك عقيدة تفسـير التطور الإنسـاني بالمبدأ الروحي وحده وعقيدة تفسيره، من الجهة الأخرى، بالمبدأ المادي وحده،
وإلى التسليم معنا بأن أساس الارتقاء الإنساني هو أساس روحي – مادي (مدرحي). (سعادة، المجلد 7، 2001 ، صفحة 179)

–ظاهرة الوجدان القومي هي ظاهرة العصـر وهي أعلى مرتبة ثقافية يجب أن نصل إليها.

في تقسـيم سـعاده لمراتب الثقافة العمرانية يتحدث عن:

أولاً: ثقافة المعزق.

ثانياً: أ ـ ثقافة المحراث = زراعة المحراث.

ب ـ ثقافة البستان = زراعة البستان

ثالثاً: ثقافة الإنتاج التّجاريّ = زراعة المحاصيل وإنشاء الصّناعات وإعداد الحاجيّات والكماليّات.

والمرتبة الثّانية هي التي بلغتها الشّعوب الساميّة منذ أقدم عصورها المعروفة وهي المرتبة التي تحاول سـورية الآن الخروج منها إلى المرتبة الثّالثة

الوجدان القومي يتطلّب من الفرد أن يضيف إلى شعوره بشخصيّته شعوره بشخصيّة جماعته، أمّته، وأن يزيد على إحساسه بحاجاته إحساسه بحاجات مجتمعه وأن يجمع إلى فهمه نفسه فهمه نفسّية متّحده الاجتماعيّ وأن يربط مصالحه بمصالح قومه وأن يشعر مع ابن مجتمعه ويهتمّ به ويودّ خيره، كما يودّ الخير لنفسه (سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 5).

التطور الاجتماعي

إذ ما المجتمع الإنسانيّ العصريّ المتمدّن إلا نتيجة أو حاصل الثّقافات المتوالية على الإنسان التي ولّدها التّفاعل المستمرّ بين الإنسان وبيئته (سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 48)

مقياس المرتبة الثقافية

المقياس الّذي نقيس به قيمة أيّة مرتبة ثقافيّة هو نسبة ما بين حصول أسباب العيش والعمل المبذول في هذا السّبيل، لأنّ كلّ تطوّر في الحياة الاجتماعيّة وأنظمة الاجتماع لا يمكن أن يحدث إلا ضمن نطاق هذه العلاقة. (سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 56)

التّجارة الطّور الأوّل للثّورة السّوريّة الثّقافيّة. سورية تكمّل ثورتها الثّقافيّة وتفتح طريقاً جديدةً للارتقاء الثّقافيّ فاستنبط الكنعانيّون (الفينقيّون) الأحرف الهجائيّة فتمّت قاعدة التّمدّن الحديث. (سعادة، المجلد 3، 2001، الصفحات 63-64)

الطور الجديد للتمدن الدولة القومية

الكلام عن الدولة يعني الكلام عن الحقوق، قبل الدولة الحديثة كانت الدولة تمثل إرادة خاصة ولم تكن تمثل إرادة الشعب أو المجتمع.

مع نشوء المدن ونشاط التّجارة والاحتراف ونهضة الاختراعات، دخل التّمدّن في طور جديد زعزع مؤسّسات كثيرةً.

إنّ استيقاظ الشّعور بالوحدة الحيويّة والمصلحة الواحدة والرّابطة الواحدة بالحياة في أشكالها وأسبابها واتّجاهها جعل الجماعة تدرك وجودها وجهّزها بوسائل التّعبير عن إرادتها فكان ذلك بدء نشوء القوميّة. فلم تعد العامّة تبعاً للأمير تخدم مصلحته وتحتمي في ظلّه، وهو سيّدها الأوحد وعلاقة الملك بأبناء الدّولة هي علاقته بالأمير فقط. كلّا. بل أصبحت العامّة لها رأي وإرادة.
(سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 110)

هذا هو المبدأ الدّيمقراطيّ الّذي تقوم عليه القوميّة. فالدّولة الدّيمقراطيّة هي دّولة قوميّة حتماً، فهي لا تقوم على معتقدات خارجيّة أو إرادة وهميّة، بل على إرادة عامّة ناتجة عن الشّعور بالاشتراك في حياة اجتماعيّة اقتصاديّة واحدة. الدّولة أصبحت تمثّل هذه الإرادة. فتمثيل الشّعب هو مبدأ ديمقراطيّ قوميّ لم تعرفه الدّول السّابقة. الدّولة الدّيمقراطيّة لم تمثّل التاريخ الماضي ولا التّقاليد العتيقة ولا مشيئة الله ولا المجد الغابر، بل مصلحة الشّعب ذي الحياة الواحدة الممثّلة في الإرادة العامّة، في الإجماع الفاعل، لا في الإجماع المطاوع .
(سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 111)

كانت الدولة قبل نشوء القوميّة إرادة خصوصيّةً تفرض نفسها على المجموع الّذي تشمله، أمّا بعد نموّ القوميّة فقد أصبحت النّظام الهيئة الممثّلين لإرادة الأمّة.
(سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 112)

إذا كانت الدّولة مظهراً سياسيّاً من مظاهر الاجتماع البشريّ فالأمّة واقع اجتماعيّ بحت. ودرس الأمم ونشوئها هو درس اجتماعيّ، لا درس سياسيّ. (سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 119)

يتفق سعاده مع ماكيفر(مكيور) في تعريف المتّحد أنّه كلّ مساحة تشتمل على حياة مشتركة وتكون متميّزةً عن المساحات الأخرى تميّزاً لا تصحّ بدونه تسمية المتّحد. فالقرية متّحد، والمدينة متّحد، والمنطقة متّحد، والقطر متّحد، ولكلّ متّحد خصائص تميّزه عمّا سواه ممّا هو أصغر منه أو أوسع منه، أقلّ منه أو أكثر منه.
(سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 121)

أساس المتحد أو المجتمع والأمة هو الاشتراك في الحياة، نحن أمة واحدة ليس لأننا نتحدّرمن أصل واحد بل لأننا نشترك في الحياة الواحدة. (سعادة، المجلد1، 2001، صفحة 405)

تصنيف سعاده للمصالح فردية وعامة دائمة مع إعطاء الأولوية لتحقيق المصالح العام والانطلاق منها هو الذي يحقق المصالح الفرعية أو الخاصة

ويربط المصلحة بالإرادة فهما قطبا المجتمع المصلحة سلبية والإرادة إيجابية، المصلحة هي الّتي تقرّر العلاقات جميعها والإرادة هي الّتي تحقّقها. وكلّما نمت الحياة ازدادت المصالح الّتي تولّد الاجتماع وقلّت المصالح المفرّقة. (سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 125)

والمصالح صنفان: 1-المتشابهة أو الشّكليّة التي هي لكلّ فرد مثلما هي لكلّ فرد آخر، لا تقتضـــي اتّحاد من يريدونها أو إيجاد علاقة اجتماعيّة ثابتة فيما بينهم.
2- المصـلحة العامّة أو المشـتركة الّتي يجمع عدد من النّاس على الاشـتراك في تحقيقها لأنّها تشـمل الكلّ، كمصـلحة خير القرية أو المدينة أو القطر. المصـلحة الاجتماعيّة الثّابتة. فمصـلحة المتّحد تظلّ قائمةً لأنّها دائمة. (سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 126)

المتّحد الاجتماعيّ ليس مجرّد أوصاف أو مصالح، بل هو أمر واقع. هو جماعة من النّاس تحيا حياةً مشـتركةً في بقعة معيّنة ذات حدود. كلّ متّحد، مهما كثرت صفاته أو قلّت، ومهما تعدّدت مصالحه، هو متّحد قائم بنفسه. والقطر الّذي هو متّحد الأمّة أو المتّحد القوميّ هو أكمل وأوفى متّحد. فالمصالح تنشأ في المجتمع، لا خارجه. (سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 129)

نحن نريد مصـالحنا لأنّنا نريد حياتنا والإرادة على قدر المصـلحة، وكلّما كانت المصلحة أساسيّةً دائمةً كانت الإرادة كذلك. (سعادة، المجلد 3، 2001، الصفحات 129-130)

جرى تركيز علماء الاجتماع الغربيين على ظواهر اجتماعية ومشاكل اقتصادية وإدارية دون إعطاء موضوع الأمة والقومية الاهتمام اللازم، بينما كان الاهتمام الأساسي عند سعاده هو موضوع الأمة والقومية. هذا الموضـوع كان غائبا في المجتمعات العربية وفي المجتمع السوري إضافة إلى سيطرة العصبيات على اختلافها وانتشار النزعة الفردية والمفاسد المنتشرة في الحالة الاجتماعية القائمة.

يقول سعاده بهذا الخصوص:

لا يمكن إصـلاح أمراض الإدارة والنظام الإداري بدون إصـلاح العلة في أهلها ــ في حالة الأمة النفسية ــ المناقبية، في المبادئ القومية . الأخلاقية ـ الاجتماعية ـ السياسية التي تكوّن قضية واحدة لا تتجزأ، إذ لا يمكن الإصـلاح السـياسـي بدون الإصـلاح الاجتماعي . الاقتصادي ولا الإصلاح القومي ـــ الوعي القومي ـــ بلا الإصلاح النفسي . المناقبي. (سعادة، المجلد 8، 2001 ، صفحة 310)

هنالك قضيتان أساسيتان بدون حلهما تبقى العلل آخذة بعضها برقاب بعض هما: قضـية المجتمع بكامله ـــ قضـية وجوده وشـخصـيته الحقوقية والسياسية ـ وقضية نفسية المجتمع ومناقبيته. إنّ الأمم التي تعالج اليوم مشـاكل الاجتماع الاقتصـادية، على أنها هي كل مشـاكلها، هي أمم قد حلت من زمان القضـيتين الأسـاسـيتين المذكورتين. (سعادة، المجلد 8، 2001 ، صفحة 311)

ويـدعو إلى التفكير العملي المجموعي ويميّزه عن التفكير العملي الفردي (سعادة، المجلد 8، 2001 ، صفحة 396)

4-المبادئ: تحدّد المبادئ هوية الأمة وشخصيتها وقضيتها وحقوقها ووحدتها الضـامنة لحقوق الأمة وحقوق الأفراد واسـتقلالها النفسـي ومصلحتها العليا التي تشكّل مقياس الأعمال والحركات السياسية

محور العقيدة القومية هو فكرة الأمة والوجدان القومي الذي يشـكل ظاهرة العصر
وقد جرى شـرح هذه المفاهيم في نشـوء الأمم، وتاليا فالمبادئ تجد مستندها العلمي في كتاب نشوء الأمم

يشـدّد سـعاده على تعليم العقيدة أي المبادئ وشـروحها كخطوة أولى وأساسية
"إنّ أول خطوة كان يجب على الحركة السـورية القومية الاجتماعية القيام بها لتتقدم، هي تعليم العقيدة السـورية القومية الاجتماعية والغاية الرامية إليها، لأنها هي الحقيقة الأساسية التي بها نوجد شعباً

وأمة ولها نعمل. كل عمل آخر من سياسة وتنظيم لا فائدة منه بدونها ولا يجدي القيام به إن لم يكن متفرعاً عنها وعائداً إليها. إنها محور الحياة والفكر الأساسي، فكل عمل يجب أن يدور عليها" (سعادة، المجلد 8، 2001 ، صفحة 229)

في صلب قسم العقيدة ـــ قسم العضوية ـــ نص أن يتخذ القومي الاجتماعي المبادئ القومية الاجتماعية "إيماناً له لعائلته وشعاراً لبيته" فجعل كل أب قومي اجتماعي وكل أم قومية اجتماعية مربياً، مرشداً، مثقفاً الأولاد في الدرجة الأولى في التعاليم القومية الاجتماعية.

المدرس القومي الاجتماعي أول جندي في معركة العقيدة القومية الاجتماعية. إنه جندي خط الهجوم الأول الذي عليه أن يدخل صلب المعركة ويحارب لإنقاذ نفوس الأحداث من العقائد الغريبة أو المتأخرة وإدخال العقيدة القومية الاجتماعية، المحررة، البانية إليها. (سعادة، المجلد 8، 2001 ، صفحة 231)

المبادئ الثلاثة الأولى تحدّد ملكية الأمة للسوريين تحت سيادتهم ومطلق تصرفهم، فهي تعيين للحقوق القومية، واعتبار القضية القومية مستقلة بذاتها عن أي قضية أخرى. وكل المسائل المرتبطة بسورية أو بالسوريين هي جزء من قضية واضحة فالترابط بين الأمة والوطن يدل على فهم الواقع الاجتماعي الذي هو الأمة وهو المبدأ الوحيد الذي تتم به وحدة الحياة. والاشتراك في مقوماتها ومصالحها وأهدافها." (سعادة، 2001 ، الصفحات 35-43)

المبدأ الرابع: يتناول حقيقة الأمة السورية وتركيبها وشخصيتها.
الأمة السورية هي وحدة الشعب السوري المتولدة من تاريخ طويل يرجع إلى ما قبل الزمن التاريخي الجلي "يتبع هذا المبدأ التسلسل التحليلي. فهو تحديد لماهية الأمة. (سعادة، المجلد 8، 2001 ، الصفحات 45-46)

المبدأ الخامس:
الوطن السوري هو البيئة الطبيعية التي نشأت فيها الأمة السورية. وهي ذات حدود جغرافية تميزها عن سواها تمتد من جبال طوروس في الشمال الغربي وجبال البختياري في الشمال الشرقي إلى قناة السويس والبحر الأحمر في الجنوب، شاملة شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة، ومن البحر السوري في الغرب، شاملة جزيرة قبرص، إلى قوس الصحراء العربية وخليج العجم في الشرق. (وتوصف بالهلال السوري الخصيب ونجمته جزيرة قبرص. (سعادة، المجلد 8، 2001 ، الصفحات 60-61)

المبدأ السادس: "الأمة السورية مجتمع واحد".

"إلى هذا المبدأ الأساسي تعود بعض المبادئ الإصلاحية التي سيرد ذكرها وتفصيلها ـ فصل الدين عن الدولة، إزالة الحواجز بين مختلف الطوائف والمذاهب ـــ وهذا المبدأ هو من أهم المبادئ التي يجب أن تبقى حاضرة في ذهن كل سوري. فهو أساس الوحدة القومية الحقيقي ودليل الوجدان القومي. " (سعادة، المجلد 8، 2001 ، صفحة 72)

"إنّ الاستقلال الصحيح والسيادة الحقيقية لا يتمان ويستمران إلا على أساس وحدة اجتماعية صحيحة. وعلى أساس هذه الوحدة فقط يمكن إنشاء دولة قومية صحيحة وتشريع قومي اجتماعي مدني صحيح، ففيه أساس عضوية الدولة الصحيحة وفيه يؤمن تساوي الحقوق لأبناء الأمة".

إنّ التساوي في الحقوق والتوحيد القضائي هما أمران ضروريان لنفسية صحيحة موحدة. فبدون هذا التساوي تظل العقليات المختلفة التي كوّنتها الشرائع المختلفة معضلة تمنع الأمة من الاضطلاع بقضاياها. فالمجتمعات المتعددة المستقلة بشرائعها وأنظمتها الحقوقية تجزئ الأمة وتمنعها من التقدم. (سعادة، المجلد 8، 2001 ، صفحة 73)

المبدأ السابع يقول: "تستمد النهضة السورية القومية الاجتماعية

روحها من مواهب الأمة السورية وتاريخها الثقافي السياسي القومي". يتضح من هذا المبدأ وهذا الكلام أنّ الاستقلال الروحي شيء واضح جداً ومبدأ فاعل له فاعلية عظيمة في حركة الحزب السوري القومي الاجتماعي. هو يوجه الفكر والشعور إلى الحقيقة الداخلية، إلى حقيقة هذه الذات الفاعلة التي هي المجتمع السوري بكل طبيعته بكل مواهبه بكل مثله وأمانيه.

يقتضي أن يكون لنا استقلال روحي وفي خطاب قديم عبّرت، أنه استقلال فكري أيضاً (سعادة، المجلد 8، 2001 ، صفحة 76) والحقيقة أنّ من أهم عوامل فقدان الوجدان السوري القومي، أو من عوامل ضعفه، إهمال نفسية الأمة السورية، الحقيقية، الظاهرة في إنتاج رجالها الفكري والعملي، وفي مآثرها الثقافية، كاختراع الأحرف الهجائية، التي هي أعظم ثورة فكرية ثقافية حدثت في العالم، وإنشاء الشرائع التمدنية الأولى، ناهيك بآثار الاستعمار والثقافة السورية المادية ـــ الروحية والطابع العمراني (سعادة، المجلد 8، 2001 ، صفحة 77)

المبدأ الثامن: "مصلحة سورية فوق كل مصلحة". إنه مقياس الحركات والأعمال القومية كلها. "إنّ هذا المبدأ يقيد جميع المبادئ بمصلحة الشعب فلا يعود الشعب يقاد بالدعاوات لمبادئ تخدم مصالح غير مصلحته هو. (سعادة، المجلد 8، 2001 ، صفحة 81)

يشرح سعاده التطور الاجتماعي من خلال التفاعل بين العوامل المادية والروحية بين الجماعة والبيئة.

ويشير إلى مقياس التطور وهو نسبة حاصل الغذاء مع الجهد المبذول

قبل الثورة الزراعية في سورية ودخول المحراث كان الجهد المبذول كبيرا وحاصل الغذاء قليلا

دخول المحراث قلب المعادلة واستطاع أن يحرّر قسما كبيرا من الجهد البشري لينصرف إلى أمور أخرى. ويضيف سعاده أن استكمال الثورة الزراعية كان باكتشاف الأبجدية.

نحن هنا أمام أهم تقنيات في حصول التطور الاجتماعي: تقنية إنتاج الغذاء وتقنية الاتصال. التقنية الأولى حرّرت قسما كبيرا من الجهد البشري والتقنية الثانية نقلت المجتمع من الثقافة الشفهية المحدودة في الزمان والمكان إلى الثقافة المكتوبة المفتوحة على المكان والزمان والمنتقلة عبر الأجيال.

وهكذا نرى مع الثورة الصناعية وتقنية الاتصال الجديدة التي سبقتها بواسطة الطباعة التي هيأت للثورة العلمية والعقلانية والفكر المتحرّر

واليوم مع ثورة التكنولوجيا الحيوية والأنترنت والذكاء الاصطناعي نحن أمام عصر جديد وتحديات كبرى.

شاهدنا حالة المجتمعات التي تخلّفت عن اللحاق بالثورة الصناعية، فماذا سيكون مصير المتخلفين عن اللحاق بالثورة الجديدة مجتمعات ودولا وأحزابا ومؤسسات.

يقول سعاده:

الأمّة متّحد اجتماعيّ أو مجتمع طبيعيّ من النّاس قبل كلّ شيءٍ آخر. وكلّ ما مرّ آنفاً من العناصر هي أوصاف للأمّة ناشئة من مجرى حياتها وتاريخها وهي قابلة التّطوّر والتّكيّف. فقد تتعاقب الأديان ويتحوّل الأدب وتتبدّل العادات وتتعدّل التّقاليد وترتقي الثّقافة في أمّة من الأمم من غير أن يشوب سنّة نشوء الأمم شائبة، ومن غير أن ينتفي وجود الأمّة، إلى أن تزول الأمم والقوميّات من الوجود ويصبح العالم كلّه متّحداً اجتماعيّاً واحداً لا تفصل بينه فواصل أرضيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة. (سعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 147)

وتبقى الدولة هي الضـــامنة لحقوق الأمة وحقوق الأفراد، ومن غير الوارد أن تعطي دولـة مـا حقوقـا للأجـانـب مســـاويـة لأبنـائهـا ويقول أيضا:

مما لا شـــك فيه أنّ أمتنا تتراوح اليوم بين الحياة والموت (ســـعادة، المجلد 3، 2001، صفحة 271)

إنّ الظروف المحيطة الآن بأمتكم هي ظروف فاصـــلة. إنها ظروف صـــراع بين الحياة والموت بالمعنى الحرفي. (ســـعادة، المجلد 3، 2001، صـــــــــفـــــــحـــــــة 367)

المراجع

Madeleine Grawitz. (2001 - 11 em édition). *Méthodes des sciences sociales.* Paris: Dalloz.

ألان تورين. (2000 ترجمة). *ما الديمقراطية الآن*. دمشق: وزارة الثقافة.

ألفن غولدنر. (2004 ترجمة). *الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربي*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

أنطون سعاده. (2001). *المجلد 10*. بيروت : مؤسسة سعاده للثقافة.

أنطون سعاده. (2001). *المجلد 11*. بيروت : مؤسسة سعاده للثقافة.

أنطون سعاده. (2001). *المجلد 5*. بيروت : مؤسسة سعاده للثقافة.

أنطون سعاده. (2001). *المجلد 6*. بيروت : مؤسسة سعاده للثقافة.

أنطون سعاده. (2001). *المجلد 7*. بيروت : مؤسسة سعاده للثقافة.

أنطون سعاده. (2001). *المجلد 8*. بيروت : مؤسسة سعاده للثقافة.

أنطون سعاده. (2001). *المجلد 9*. بيروت : مؤسسة سعاده للثقافة.

أنطون سعاده. (2001). *المجلد 2*. بيروت: مؤسسة سعاده للثقافة.

أنطون سعاده. (2001). *المجلد 3*. بيروت: مؤسسة سعاده للثقافة.

أنطون سعاده. (2001). *المجلد 4*. بيروت: مؤسسة سعاده للثقافة.

أنطون سعاده. (2001). *المجلد1*. بيروت: مؤسسة سعاده للثقافة.

أنطوني غيدنز. (2005). *علم الاجتماع*. بيروت: المنظمة العربية للترجمة.

بيير بورديو. (2007–ترجمة طبعة ثالثة). *الرمز والسلطة*. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.

ريتشارد أوزبرن. (2005). *أقدم لك علم الاجتماع*. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

ستيفان شوفالييه، و كريستيان شوفيري. (2013 ترجمة الزهرة ابراهيم). *معجم بورديو*. دمشق: دار الجزائر.

فيليب كابان. (2010–ترجمة). *علم الاجتماع من النظريات الكبرى الى الشؤون اليومية*. دمشق: دار الفرقد.

عودة إلى الرئيسية

كتاب الزعيم العلمي

بقلم الأمين الدكتور جهاد نصري العقل

تحت عنوان : "رسالة الزعيم العلمية، نشؤ الأمم"، نشرت جريدة "النهضة"، في عددها، الرقم 162، تاريخ 15- 3 – 1938 المقالة الآتية، وهي بقلم سعاده، وفيها يتحدث عن الصعوبات التي واجهته في بداية نشر رسالته، خصوصا الضجة العظيمة التي تمحورت حول مفهوم الأمة، من هنا كانت الحاجة الماسة إلى وضع أساس علمي لهذا الموضوع الإجتماعي الخطير، ولهذه الغاية وضع سعاده كتابه "نشؤ الأمم" كي يصبح القارىء قادراً على التميّيز بين الصحيح والفاسد في النظريات والعقائد التي تدعوه إلى اعتناقها وعلى تقدير رسالة الزعيم القومية المبنيّة على فهمه العميق لكيان الأمة السورية وعناصر حياتها.

يقول سعاده في مقالته المشار إليها آنفا: "لا مشاحة في أنّ رسالة الزعيم القومية، لاقت صعوبات جمّة من عدّة أنواع. وأهم صعوبة كانت في الجهل التام للمسائل القومية عامة، المتفشي في الشعب. فما كاد يشيع أنّ رسالة الزعيم، تحمل فكرة القومية السورية، وأنّ غايته العمل لمجدّ سورية، ورفاهية شعبها، **حتى قامت ضجّة عظيمة حول الأمة ومعناها، ومعنى القومية.** فأخذ الجهلة المدّعون يقاومون فكرة القومية

الصحيحة مؤولين الحقائق، وفاقاً للنعرات الخاصة التي ربُوا عليها، ووفاقاً لأغراض خاصة في نفوسهم. فخبطوا في هذا البحث خبط عشواء، وخلطوا بين المسائل الإجتماعية والسياسية والإقتصادية والحربية خلطاً

زاد بلبلة العقائد والأفكار زيادة عظيمة.

بناء على هذه الحالة، رأى الزعيم بثاقب بصره أنّ الحاجة إلى أساس علمي لهذا الموضوع الإجتماعي الخطير ماسة، وأنّ لا بدّ من وضع كتاب في علم الإجتماع، يوضح الواقع الإجتماعي والقضايا الإجتماعية، ويرينا كيف نشأت الأمم من تطوّر الإجتماع الإنساني، فيكون الحدّ الفاصل بين الخلط والهذر، وبين الكلام الجدّي المبني على المعرفة.

وقد شعر الزعيم أنّه مدعو بهذا العمل بنفسه لندرة علماء اجتماع غيره، ولفقر اللغة العربية العامة في المؤلفات الإجتماعية، التي يمكن الإعتماد عليها، وتفي بالحاجة لفهم الأمم والقوميات، فاغتنم فرصة وجوده في السجن، وأكبّ على تأليف هذا الكتاب النفيس الذي نثق بأنّه سيحدث ثورة فكريّة عامة في سورية والأقطار العربية.

في كتاب "نشوء الأمم" يضع الزعيم أساس علم الإجتماع الحديث، كما وضع فى مبادئه

وإنّ ما نعهده في الزعيم من غزارة علمه في الشؤون الإجتماعية والتاريخية، ومن تعمّقه في درس العلوم الإجتماعية الاختصاصية، ومن سعة إطلاعه في اللغات الحيّة وآدابها مع نبوغه ومقدرته تجعلنا نرتقب الفتح العظيم الذي سيكون لكتابه.

من هذه اللمحة يدرك القارىء أنّ "نشؤ الأمم" ليس كتاب الزعيم الذي يضمّنه أفكاره وآراءه الإجتماعية – السياسية، فهذا قد اجّله الزعيم لفرصة أخرى، بل هو كتاب الزعيم العلمي الذي يشرح فيه نشأة النوع الإنساني والإجتماعي البشري وتطوراته، حتى عصر الأمم الحاضر فيرى القارىء أسرار الإجتماع الإنساني منكشفة لعينيه ويدرك حقيقة المسائل الإجتماعية وماهية الأمة وكيفية نشوء هذه الشخصية الإجتماعية.

في كتاب "نشوء الأمم" يضع الزعيم أساس علم الإجتماع الحديث، كما وضع في مبادئه القومية أساس بناء الأمة السورية القومي."[1]

من مراجعة، بعض كتابات سعاده في موضوع "نشؤ الأمم"، خصوصا مقدمة الكتاب ومقالة ("رسالة الزعيم العلمية "نشؤ الأمم") تتكشّف لنا الأسس العلمية التي وضعها سعاده، من أجل تثبيت دقّة المفاهيم وأهميتها في بنائه الفكري، ورسالته الثقافية، وذلك من أجل منع إجراء الأحكام الإعتباطية، والوقوع في بلبلة الأفكار وفوضى العقائد، وعدم القدرة على التمييز بين الصحيح والفاسد من النظريات والعقائد "**وعلى تقدير رسالة**

[1] سعاده: الأعمال الكاملة، ج3، ص453.

الزعيم القومية المبنية على فهمه العميق لكيان الأمّة السورية وعناصر حياتها."

يقول سعاده في مقدمة "نشؤ الأمم":

-"وقد اسندت حقائقه (نشؤ الأمم) إلى مصادرها الموثوقة[2] واجتهدت الإجتهاد الكلي في الوقوف على أحدث الحقائق الفنية التي تنير داخلية المظاهر الإجتماعية **وتمنع من اجراء الأحكام الإعتباطية عليها**".

-" كل جماعة ترتقي إلى مرتبة الوجدان القومي، الشعور بشخصية الجماعة، لا بد لأفرادها من فهم الواقع الإجتماعي وظروفه وطبيعة العلاقات الناتجة عنه وهذه هي العلاقات التي تعين مقدار حيوية الجماعة ومؤهلاتها للبقاء والإرتقاء، فبقاؤها غامضة يوجد صعوبات كثيرة تؤدي إلى اساءة الفهم وتقوية عوامل التصادم في المجتمع فيعرقل بعضه بعضاً ويضيع جزءاً غير يسير من فاعلية وحدته الحيوية ويضعف فيه التنبه لمصالحه وما يحيط به من اخطار من الخارج". وإنّ درسا من هذا النوع يوضح الواقع الإجتماعي الإنساني في أطواره ضروري لكل مجتمع يريد أن يحيا ففي الدرس تفهم صحيح لحقائق الحياة الإجتماعية ومجاريها، **ولا تخلو أمة من الدروس الإجتماعية العلمية إلا وتقع في فوضى العقائد وبلبلة الأفكار**".

-"من مطالعة نشوء الأمم يصبح القارىء **قادراً على التمييز بين الصحيح والفاسد في النظريات والعقائد التي تدعوه إلى اعتناقها**[3]

- "... **فكتاب "نشؤ الأمم" يمكن اعتماده في سائر تطوّر الجماعات الإنسانية نحو كيان الأمة، ونشؤ القومية، بما أورد من الحقائق العلمية، والتحليلات والتعليلات المفيدة..."**[4]

ويُعتبر الخطاب التوجيهي الأول الذي ألقاه سعاده في اجتماع الحزب المركزي في أول حزيران 1935، "أول شرح تعليمي مدوّن لمبادىء الحزب السوري القومي الإجتماعي وأهدافه العليا، وهو الوثيقة الأولى التي اعتمدها المفكّرون والكتّاب

[2] راجع، د. عادل بشارة: "إضاءة على المراجع المعتمدة في كتاب نشؤ الأمم"، المرجع: الكتاب القومي، العدد4، ص19-25، وفي الخلاصة "دلالات استخدام سعاده لهذه المراجع"، يقول د بشارة: "إنّ سعاده اعتمد على أبرز وأحدث الأبحاث والحقائق العلمية...ونزّه البحث العلمي الإجتماعي من الإختلاطات السياسية والنعرات العرقية والأوهام اللغوية والدينية...فقد درس سعاده معظم الحقول العلمية ذات الصلة في كتابه من الجيولوجيا إلى الأنتربولوجيا إلى التاريخ والعلوم السياسية والإجتماعية واللغوية والجغرافيا".

[3] سعاده: الأعمال الكاملة، ج3، ص 454، "رسالة الزعيم العلمية، نشؤ الأمم".

[4] سعاده: الأعمال الكاملة، ج11، ص393و394، من رسالة إلى فخري المعلوف، تاريخ 4 آذار 1945.

لبحث عقيدة الحزب.[5] واستتبع سعاده هذه المهمة التعليمية – التثقيفية، في "الندوة الثقافية"[6] التي بدأها في السابع من كانون الثاني من العام 1948 وذلك بعد عشرة أشهر على أثر عودته إلى الوطن، على غياب قسري دام إثنتي عشر سنة (1939_1947)، بغاية تعليم القوميين الإجتماعيين وتثقيفهم على قواعد اللغة الجديدة والمفاهيم الجديدة، لأنّه رأى "أنّ انتشار الحركة القومية الإجتماعية، في السنوات الأخيرة،كان مجرّد إنشار أفقي، سطحي، يعرضها بقاؤها عليه للميعان والتفسخ والتفكك ..."[7]، وشدّد سعاده على "الأوساط الثقافية"على حضور الندوة، واعتبر ذلك "واجبا أوليا أساسيا في العمل للحركة القومية الإجتماعية، لأنّه إذا لم نفهم أهداف الحركة وأسسها والقضايا والمسائل التي تواجهها لم نكن قادرين على فعل شيء في سبيل الحركة والعقيدة والغاية التي اجتمعنا لتحقيقها. **فالمعرفة والفهم هما الضرورة الأساسية الأولى للعمل الذي نسعى إلى تحقيقه.**[8] شرح سعاده بأسلوبه العلمي التعليمي التثقيفي في المحاضرات العشر "التعاليم– المبادئ" السورية القومية الإجتماعية، التي "هي مكتنزات الفكر والقوى"، التي "هي قواعد إنطلاق الفكر"، التي "هي مراكز إنطلاق في اتجاه واضح."[9] وشدّد سعاده على فهم هذه التعاليم– المبادئ من أجل "فهم حقيقة ما تعني لنا، وكيف نؤسس بها حياة جديدة أفضل من الحياة التي لا تزال قائمة خارج نطاق نهضتنا."[10]

---

[5] سعاده: المحاضرات العشر، ط 3، 1956، ص13.

[6] الندوة الثقافية: أنشأ سعاده هذه الندوة في العام 1937"للأبحاث الثقافية ونقل الفكر من السطحيات ومسائل الإدراك العادي إلى الأساسيات وقضايا العقل العلمي والفلسفي"...وتوقفت هذه الندوة على أثر سفر الزعيم عام 1939، وبعد عودته إلى الوطن أعاد سعاده تفعيل عمل الندوة، وألقى فيها عشر محاضرات تثقيفية في الفترة الواقعة بين 7كانون الثاني و4 نيسان 1948، وجمعت هذه المحاضرات في كتاب حمل العنوان "المحاضرات العشر" . للمزيد من التفاصيل، راجع مقالة "الندوة الثقافية في الحزب السوري القومي الإجتماعي" بقلم رئيس الندوة جهاد العقل، المنشورة في "صوت النهضة"، تاريخ 15 تموز 2002، ص 36–38.

[7] سعاده، راجع المحاضرة الأولى

[8] المرجع ذاته.

[9] المرجع ذاته.

[10] المرجع ذاته.

عودة إلى الرئيسية

منطلقات اقتصادية في فلسفة الإنسان-المجتمع

زينون عطية*

لما كان النظام الاقتصادي–الاجتماعي هو أساس مفهوم الإنسان–المجتمع، ولما كانت الرابطة الاقتصادية هي الرابطة الاجتماعية الأولى، فلا بد من إيلاء الاقتصاد أولوية في النقد والتطوير الفكريين.

بين طرحين ينطلق أولهما من النظرة الفردية الى الحياة الانسانية وثانيهما من نظرة مجموع الأفراد، طرح سعادة فلسفة الإنسان المجتمع المدرجية. وبالرغم من تناقضات بين الطروحات الثلاثة، إلا أنها تتفق على أن الرابطة الاقتصادية هي الرابطة الاجتماعية الأولى، وهو ما يحيلنا في النقد والتطوير الفكريين إلى ضرورة الدراسات المقارنة، بما يتسق مع تعريف سعادة للبشرية بأنها تركيب كامل لا يتم إلا إذا كانت أجزائها مترابطة ترابطًا تامًا بواسطة العقل البشري، دون أن نغفل ما نبه منه من التعاطي المبعثر مع المدارس الفكرية بدون رأي منهجي لنا فيها، مما يزيد من تخبطنا.

قدم سعادة القواعد الأساسية للفلسفة الاقتصادية القومية الاجتماعية، كما وصفها في ختام المحاضرة الثامنة من المحاضرات العشر "إن ما أعطي الآن هو قواعد عامة ومعلومات أساسية لا غنى عنها فيما بعد إلى النظر في أمور اختصاصية"، ووضوح اللغة وفهمها الدقيق يعني أن نظرية الاقتصاد القومي الاجتماعي يجب أن تستكمل انطلاقًا من هذه الفلسفة والتزامًا بهذه القواعد، لبناء نظام اقتصادي ينعكس تطبيقات في ميادين الاختصاص.

بناء عليه نرى أن مفهوم سعادة للإنتاج بشموله البنى الفوقية والتحتية في مختلف الميادين، والعلاقة التبادلية بين تلك البنى التي لا تتجزأ، يشكل ركيزة لفهم تطور الإنتاج البشري تسمح ببناء النظام الاقتصادي الذي يضمن مصلحة الإنسان–المجتمع، والقابل للتطور المستمر.

وإن عدنا للنظر في ما قدمه الفكر الإنساني من مقاربات إقتصادية في العصر الحديث، فقد قطعت المدارس الرأسمالية شوطًا كبيرًا من آدم سميث إلى الاقتصاد المالي إلى مدرسة شيكاغو إلى ما يسمى بالرأسمالية "النيوليبرالية" وكل ما بينهم، ومقاربات تنوعت بين الاقتصاد الحر والأنظمة "شبه الاشتراكية". أما "الماركسية" فمرت بثلاث مقاربات بداية بما قدمه ماركس المنطلق من الصراع الطبقي ضمن المجتمعات الصناعية لأمم ناجزة لسيادتها القومية (قومية على أساس عرقي إثني ديني) في دول ذات طبيعة إمبريالية، إلى "اللينينية" وصراع الأمم المستعمِرة مع الأمم المستعمَرة ضمن تطور الرأسمالية الإمبريالي وحتمية الثورة المنبثقة من الشرق، إلى ماو ومفهوم الأمة البروليتارية بكليتها المسحوقة، ونهضة "الأمة الصينية العظيمة". وقد تزامن الطرح الماوي والطرح السوري القومي الاجتماعي، والمقصود بهذه الإشارة ملاحظة عوامل السياق التاريخي والشرط الزمني للتطور الفكري. وفي الفترة نفسها تلاقت مع سعادة مقاربات بعض المفكرين مثل بولس فرح أحد أبرز القيادات الشيوعية في فلسطين من حيث اعتبار الأخير أن الطبقة العاملة اليهودية الأوروبية في فلسطين هي جزء من الكتلة الاستعمارية وتجسيد للتغيرات القائمة بفعل الاستعمار وحركة رأس المال. فالوجود العمالي (البروليتاري) اليهودي كما الوجود البرجوازي اليهودي، يقومان على استيطان فلسطين ومحو المجموعة الأصلانية العربية بعد محو نمط إنتاجها الفلاحي حسب فرح. وأن "الصراع الفلسطيني ضد اليهود المستوطنين لا يتعين من زاوية علاقتهم بوسائل الإنتاج وفقا للمقولة الماركسية الكلاسيكية (حيث الصراع يتعين بين من يحوز على وسائل الإنتاج ومن هم دونها)، بل يتعين من زاوية علاقتهم بالمشروع الصهيوني في بناء دولة أو مجتمع أو كيبوتسات يهودية صهيونية مناقضة لمصالح المنطقة العربية في الاستقلال والسيادة الكاملة".

هنا تبرز أهمية فهمنا للمدارس الفكرية وسياقاتها التاريخية، والموقف منها، إن كان من حيث مساحات التقارب كما سبق أو التناقض، فمثلًا لا يلتقي رفض الإقطاع والاستغلال الطبقي بأشكاله الكلاسيكية أو المستحدثة لدى سعادة مع المقاربات "الماركسية". ولا تلتقي مبادئ حق الدولة في توجيه الاقتصاد القومي وحرية العمل وإنصاف الأجور وصيانة الحق القومي مع مبدأ الحرية المطلقة لرأس المال والشركات بحجة أنها المحرك للاقتصاد وللقوة العاملة. كما يتناقض المفهوم الأميركي للمدينة كبوتقة صهر للأفراد والجماعات غير المتجانسة مع المفهوم القومي الاجتماعي للمدينة كنتاج للتطور الطبيعي للمجتمع وحركة العمران، والذي يعتبر المدينة أحد المتحدات التي تشكل المجتمع حسب التدرج الاقتصادي–الاجتماعي الطبيعي لهذه المتحدات، وذلك لتناقض المنتجات الفكرية الاقتصادية الاجتماعية في سياق الاستيطان الإحلالي مع السياق القومي الاجتماعي. فالمتحدات الاقتصادية الاجتماعية تنمو بشكل تكاملي بين القرى الزراعية والمراكز المدينية التجارية لها مثلًا، وبين المراكز الصناعية المدينية والموانئ.. إلخ، ويتطور في كل متحد سياقه الاجتماعي الثقافي الذي يخدم النظام الكلي، فاذا ما حدث اختلال سكاني

اقتصـــــادي نتيجـة للحروب مثلا، اختلـت المتحـدات المنكوبـة والمستضيفة معًا، من حيث البنية الاقتصادية والاجتماعية، بما يخدم مركز الهيمنة المستفيد من الحرب، ويصبح عندها الحديث عن بوتقة صهر تعمية على مصالح ذلك المركز.

فلا فلســـفة الفردانية ولا إجتماع الأفراد يلتقيان مع فلســـفة الفرد– المجتمع المدرجية حيث "الإنســـان لا ينكمش ليكون فردا ولا ينفلش ليكون عالمًا"، فلا فصـــل بين الفرد والمجتمع ولذلك لا فصـــل بين البنى الفوقية والتحتية ضـــمن البيئة القومية وما يترتب على ذلك من محددات.

لكن هذا كله لا يعني الرفض التام لمجمل هذه المدارس، بل تبرز هنا أهمية إجراء دراســـات علمية مقارنة على نطاق واســـع لغاية التطوير والنقد الذاتي قبل أي غاية أخرى. يتم خلال هذه الدراســـات التمييز بين نجاح أو فشـــل الأنظمة الاقتصـــادية من الأنظمة السياسية، بدراسة المعطيات والوقائع للفهم السليم لمختلف العوامل والظروف التاريخية.

أما في ما يخص ميادين الإنتاج (المعرفية والعلمية والفكرية والفنية والزراعية والصناعية والتجارية والاستكشافية)، فتحتاج ميادين الإنتاج والأولويات أيضًا إلى دراسة تستفيد من الذهنية الإبداعية في تاريخنا، ومن تجارب الأمم وما وصـــلت إليه العلوم اليوم. فمثلًا يلاحظ أن أكبر 10 اقتصـــادات صـــناعية عالمية (باســـتثناء المملكة المتحدة لنقص البيانات) هي بين أكبر 15 دولة في الإنتاج الزراعي العالمي، تنتج مجموعًة واسعًة من المحاصيل والمنتجات الحيوانية. أي أن كل أمة متقدمة اقتصـــاديًا تدرك أهمية الإنتاج الزراعي كركيزة للأمن الغـذائي القومي كمـا في العلاقـات التجـاريـة، ودوره في التنميـة الاقتصـــادية، وفي الاســـتدامة البيئية. مما يبين أن هذا الميدان الإنتاجي هو عنصـر أسـاسـي بين عناصـر دورة الحياة الاقتصـادية الاجتماعية، يشـكل أحد عناصـر السـيادة اللازمة للتطور والتقدم

الاقتصادي–الاجتماعي، والبيئة الطبيعية السورية بيئة خصبة ملائمة للإنتاج الزراعي المتنوع. كما أنه من أهم العناصر التي تولد الانتماء نتيجة التفاعل المباشر مع البيئة الطبيعية

لكن نماذج الإنتاج، وهنا في الزراعة كمثال، مشروطة أيضًا بعدم التناقض مع المبادئ والأسس القومية الاجتماعية، ونستنتج منها ثلاثة: صحة البيئة (الأرض والموارد)، صحة الإنسان–المجتمع (جسديا ونفسيا)، وإنصاف العمل (متضمنًا صغار المزارعين كما كبارهم). فلا صحة الموارد ملك لوريث أو جيل دون سواه، ولا المجتمع يستمر ويرتقي بلا صحة جسدية–نفسية، ولا الأخيرتان تتحققان بلا صحة معيشية. فأي نموذج يحمل تناقضًا مع مجمل المبادئ القومية الاجتماعية يعني تطويرًا لنموذج تتناقض مع مصلحة المجتمع المستمر، فلا يستمر لا مجموعًا ولا أفرادًا.

كما أن ميادين الإنتاج لا تخدم المصلحة القومية دون تأمين عناصر السيادة والقوة اللازمة لصيانة الحق والمصلحة القوميين. وهنا تجدر الإشارة إلى أن سعادة وضع المبدأ الإصلاحي الرابع الذي يتناول تنظيم الاقتصاد القومي قبل الخامس المتعلق بإعداد جيش قوي يكون ذا قيمة فعلية في تقرير مصير الأمة والوطن، أي أن الرابع قد يكون شرطًا لتحقيق الخامس، ويحتاج هذا التخمين أيضًا لدراسة مختصة لتوضيح علاقة المبادئ الإصلاحية.

بعد إنجاز تلك المرحلة من الدراسات في سياق استكمال نظرية الاقتصاد القومي الاجتماعي، لا بد من مرحلة أخرى تتناول التغير العالمي الذي بدأ منذ عام 1990 بتمظهر تعاظم قوة الشركات متعددة الجنسيات أو العابرة للقارات، والتي سماها الأكاديمي والكاتب إغناسيو رامونييه Ignacio Ramonet Miguez عام 1991 بسادة العالم الجدد، حيث أصبحت كل من العولمة الاقتصادية والحمائية حاضرة على طرفي ما يبدو أنه النقيض مما يسمى اليسار واليمين، من الأنظمة الرأسمالية الغالبة إلى الصين الشيوعية ذات الاقتصاد الهجين، خاصة بعد أن تخطت التنافسية الرأسمالية للشركات حدود وسيطرة الدولة، بل لتسيطر الشركات على الدول في كثير من الأحيان. أي أن ما أسماه سعادة بالتحول من الإقطاع المحلي إلى الإقطاع الدولي ("إقطاع إنترناسيوني")، أصبح اليوم إقطاعًا إنترناسيونيًا بين الشركات والمجتمعات، ولا بد للنظرية الاقتصادية القومية الاجتماعية المتأملة أن تقدم جوابًا.

*استشاري في اتصال المؤسسات والمدير العام لمؤسسة حياة الحويك.

عودة إلى الرئيسية

بين النهج العلمي والطقوس اللاهوتية

الرفيق الدكتور ميلاد السبعلي*

أزمة النهضة في زمن التحول الرقمي وسُبل استعادتها كحركة عقل وتغيير وإبداع

المقدمة:

شهدت المجتمعات العربية في القرن العشرين نشوء حركات نهضوية فكرية وتنظيمية طموحة، أسّسها مفكرون عقلانيون على قواعد علمية، استهدفت تحرير الإنسان من الجهل والخوف والتقليد، وبناء مجتمع جديد على أساس العقل، والإرادة، والحرية، والتنظيم.

لم تكن هذه الحركات بالضرورة نسخًا محلية عن أيديولوجيات مستوردة، بل رؤى تأسيسية متكاملة، قاربت الإنسان والمجتمع والدولة والتاريخ من منظور شامل، يربط النظرية بالفعل، والغاية بالوسيلة، والفكر بالواقع.

غير أن معظم هذه الحركات، وبعد رحيل مؤسسيها، تعرّضت لتحوّلات داخلية عميقة أخرجتها تدريجيًا من مسارها العقلي–النهضوي، وأدخلتها في نمط من الجمود التنظيمي والفكري.

حدث ذلك عندما تحوّلت العقيدة من منهج تفكير مفتوح إلى نص مقدّس مغلق، وحين استُبدلت القيادة العقلانية بالسلطة الأبوية الرمزية، فبدأت المؤسسات الفكرية تتصرف على نحوٍ يشبه المؤسسات الدينية التقليدية:

تكرّس النصوص، تجرّم الاجتهاد والابتكار، وتمنح الشرعية بناءً على الولاء لا على الإنجاز.

وفي ظل تربية عقائدية لاهوتية، انقلبت وظيفة الفكر من التحرير إلى الحماية، وتحوّلت المؤسسات من فضاءات للتجريب والتطوير والنهوض إلى أجهزة تحفظ التراتب وتعيد إنتاج الطقوس. فكان أن تراجعت وظيفتها التاريخية، وبهت حضورها المجتمعي، وتقلّصت قدرتها على مواكبة التحديات الجديدة واجتذاب الأجيال الجديدة.

يأتي هذا التراجع في وقت يشهد فيه العالم أكبر ثورة في التاريخ المعاصر:

ثورة رقمية، معرفية، ثقافية، واقتصـــادية، تقودها التقنيات الحديثة، والذكاء الاصطناعي، ومنصات التواصل، والتحوّل في معنى العمل، والمعرفة، والسلطة، والهوية.

ومع هذه التغيرات العميقة، لم تعد المؤسسات النهضوية تواجه فقط أسئلة التغيير السياسي والاجتماعي، بل أسئلة الحضارة الجديدة:

- كيف نعيد تعريف النهضة في عصر ما بعد الحداثة والرقمنة؟
- كيف نحمي المبادئ دون أن نغلق الفكر؟
- كيف نصـــوغ خطابًا قادرًا على مخاطبة جيل تربّى في عوالم شبكية وسائلة وأفقية؟
- كيف نستثمر أدوات العصـر لننهض، بدل أن نتقوقع أو نُذوّب هويتنا؟

هذا المقال هو محاولة لفهم جذور هذه الأزمة، وتشـــريح التحوّلات التي أدّت إلى الانقلاب على المنهج العلمي التأسيسي باسم "النهج"، وتحوّل العقل إلى سلطة، والنص إلى تعويذة، والقادة إلى رموز.

وهو أيضًا دعوة لاستعادة النهضة كما وُلدت:

حركة عقل، ومســـار نقد، وفعل تغييري متجدد، قادر على مخاطبة العصر من موقع المبادئ، لا من خندق الجمود أو الانبهار.

==========

أولًا: المؤسس العقلاني والرؤية العلمية للنهضة

1- النهج العلمي في العقيدة النهضوية

حين نتحدث عن النهج العلمي داخل الحركات النهضـوية، لا نقصـد فقط اسـتخدام المصـطلحات الحديثة أو الدعوة إلى التقدّم التقني، بل نعني الرؤية الفلســـفية الشـــاملة التي تقوم على المنهج العقلاني والنقدي.

هذا المنهج لا يبدأ من مســـلّمات ثابتة ولا ينتهي بيقين مطلق، بل يُبنى على:

- الاطلاع الواســـع على الواقع الاجتمـاعي والتـاريخ والفكر الانساني.
- التقييم الموضوعي للتجارب والمواقف والأفكار.
- التفكير النقدي الذي لا يخضـع للمسـلمات ولا يتحصّـن خلف "الحقائق الجاهزة."
- الاقتناع العقلاني الحرّ، لا الإيمان الأعمى.
- المنهج العملي التجريبي الـذي يربط الأفكـار بـالنتـائج، لا بالشعارات.

في هذا السـياق، فإن العقيدة لا تُفهَم ككتاب منزّل أو كأحكام مغلقة، بل كمنظومة من المبادئ العامة والمفاهيم التي تنطلق منها عملية التفكير المستمر. أي أن العقيدة هنا ليست نهاية، بل قواعد انطلاق للفكر الحيّ والحرّ.

2- أنطون سعاده: نموذج المؤسس العلمي

يُعد أنطون سـعاده من أبرز نماذج المؤسـسين الذين تبنّوا هذا النهج العلمي النقدي.

فمنذ كتاباته الأولى، لم يطرح "النصـــوص" كحقائق مُنزلة، بل دعا إلى بناء نهضـــة على أســـاس العقل العلمي، والواقع الاجتماعي، والمسار التاريخي والتجربة العملية.

من أبرز ما يميّز فكر سعاده في هذا المجال:

- لم يعتبر العقيدة غاية بذاتها، بل أداة لفهم الحياة وصناعتها.
- لم يطلب الإيمان العقائدي الصـــوفي أو اللاهوتي، بل دعا إلى الإيمان القائم على الفهم، والتحليل والاقتناع الحرّ.

- لم يختزل النهضة في مجموعة شعارات، بل وضع منهجًا عمليًا يربط بين الفكرة والمجتمع، بين النظرية والفعل، بين الغاية والوسيلة.

وقد شدّد مرارًا على أن العقيدة ليست طقوسًا ولا تعاويذ، بل "نظرة جديدة إلى الحياة والكون والفن"، أي رؤية متكاملة تتطوّر مع تطوّر الإنسان والظروف.

3- الفارق بين الإيمان العقلاني والإيمان التقديسي

سعاده – كما المؤسسون العقلانيون الآخرون – ميّز بوضوح بين نوعين من "الإيمان:"

أ. الإيمان العقلاني العملي

- هو إيمان ناتج عن اطلاع واقتناع وتحليل.
- لا يُلغي السؤال، بل يُحفّزه.
- لا يُطلب كشرط للانتماء، بل يُبنى كنتيجة للفهم.
- يرى في العقيدة وسيلة لتغيير الواقع، لا غاية في ذاتها.
- يجعل من كل منتمي مشروعَ مفكّر، لا تابعًا ببغائيًا.

ب. الإيمان التقديسي اللاهوتي

في المقابل، فإن الإيمان التقديسي اللاهوتي:

- يقوم على التسليم الكامل بالنص أو بالشخص المؤسس.
- يُقصي النقد والاجتهاد، ويُلبس الفكرة هالة من العصمة.
- يُمارَس بوصفه طقسًا، لا تفاعلًا فكريًا.
- يُحيل المؤسسة إلى ساحة ولاء لا مدرسة فكرية.
- ينتج أتباعًا لا مفكرين.

ومن هنا يتضح أن المشروع النهضوي الذي أراده سعاده – وغيره من المفكرين الروّاد – لم يكن دعوة لاتباع "نص مقدّس"، بل مشروعًا لبناء "عقل حرّ"، يرى في المبادئ قواعد انطلاق لا جدرانًا للعقل.

==========

ثانيًا: التحوّل من النهج العلمي إلى النهج اللاهوتي

بعد رحيل المؤسس أو رحيله عن القيادة المباشرة، تواجه الحركات النهضوية اختبارًا وجوديًا حاسمًا:

هل تحافظ على جوهر النهج العلمي وتتطوّر وفقًا لتغيرات الواقع الاجتماعي؟ أم تستبدل هذا النهج بمنظومة مغلقة تُقدّس النصوص وتُجمّد الفكرة، على قاعدة أن الواقع الاجتماعي ثابت لا يتغير مع تطور الحياة؟

للأسف، ما حصل في كثير من التجارب هو التحوّل التدريجي من منهج التفكير العلمي الحرّ إلى منطق لاهوتي تقديسي، شبيه بالتحوّل الذي عرفته بعض الأديان من الدعوة إلى الإحياء الروحي والعقلي، إلى نظام طقسي مغلق يُدير الطقوس لا المعاني.

1-معالم النهج العلمي كما وضعه المؤسس

كان النهج العلمي الذي أرساه المؤسس، مثل أنطون سعاده، يرتكز على:

- الأساس العلمي للمبادئ وقابليتها للشرح، لا للتلقين.
- مركزية العقل، لا الولاء.
- ربط العقيدة بالواقع المتغيّر.
- جعل الفكر مستمرًا، لا منتهيًا.
- فتح باب الاجتهاد والتطوير لاختبار الأفكار لا تجميدها.

وهذا ما منح العقيدة في بدايتها قوة ثورية تغييرية، لأنها كانت مرتبطة بالحياة، لا بالماضي.

2-التحوّل إلى النهج اللاهوتي بعد المؤسس

مع انتقال القيادة إلى أجيال لاحقة، بدأ التغيير الصامت يحصل تدريجيًا:

تجميد النص: لم تعد النصوص تُقرأ كمنطلقات تفكير، بل كآيات محفوظة.

- تحويل العقيدة إلى "حقيقة كاملة": لم تعد العقيدة تُناقَش، بل تحفظ وتُردَّد.
- إغلاق الاجتهاد: أُقفِل باب تطوير الأدوات والمفاهيم، بحجة الحفاظ على "النهج."
- سيطرة التفسير الواحد: ظهر تأويل واحد "صحيح"، وأصبحت الاختلافات نوعًا من الكفر السياسي والتجديف.
- الانزلاق نحو الطقوس: حلّ التكرار محل الاجتهاد، و"حماية العقيدة" محل تجديدها وعصرنة آلياتها وتطبيقاتها.

وهكذا، تحوّلت العقيدة من رؤية فكرية متحركة إلى منظومة مغلقة، تُدار كما تُدار الشعائر، وتُقاس بالانضباط لا بالإنجاز.

3-الآليات النفسية والتنظيمية لهذا التحوّل

أ. الخوف من التغيير

عاشت القيادات اللاحقة حالة قلق دائم من أن أي اجتهاد جديد قد يُهدد وحدة التنظيم، أو يُفهم كخيانة للمؤسس. فاختارت الثبات.

ب. الاحتماء بالماضي

كلما زادت التحديات الواقعية، زادت الحاجة النفسية للتمسّك بالنص، بدل مواجهتها بأدوات جديدة.

ج. الانجذاب للسلطة

وجدت بعض القيادات أن إدارة مؤسسة تقدّس المؤسس والنص، أسهل من إدارة مؤسسة تحاسب القائد على إنجازاته لا على رمزيته وهيبته. فتحوّلت القيادات إلى "رُعاة للنص"، لا محركين للفكر.

4-النتيجة: الانقلاب على جوهر النهضة

حين يُستبدل المنهج العلمي باللاهوتي، تحدث أربعة انقلابات خطيرة:

1. من الانتاج الفكري إلى التكرار.
2. من الاجتهاد والبحث إلى الطاعة العمياء والركون الى آيات النص.
3. من الواقع إلى الشعارات
4. من الإنسان-المجتمع المفكر إلى الفرد المُنفّذ.

وبذلك، تفقُد النهضة روحها، وتُختزل في طقوسٍ ولاءٍ لرموزٍ ونصوصٍ وقيادات، بدل أن تبقى عملية تحرير عقلي متجددة.

==========

ثالثًا: كيف تنتج التربية اللاهوتية قيادة أبوية؟

عندما تتحول العقيدة الفكرية داخل المؤسسة النهضوية إلى منظومة مغلقة، ويتكرّس التعامل مع النصوص على أساس لاهوتي، تنتقل العدوى تلقائيًا إلى البنية القيادية. فكما أن النص لا يُناقش، كذلك يصبح القائد "الممثل الشرعي والوحيد" لهذا النص، وتبدأ بنية السلطة في اتخاذ طابع أبوي-بطريركي، قائم على التراتبية، والشرعية الرمزية، والطاعة العاطفية.

هذا لا يحدث بشكل مفاجئ، بل عبر سلسلة مترابطة من الأنماط التربوية التلقينية والسلوكيات الطقوسية التي تعيد إنتاج الذهنية اللاهوتية في مستوى القيادة والتنظيم.

1-من الطاعة للنص إلى الطاعة للقائد

حين يُربّى الأعضاء على أن النص الفكري مكتمل، ومقدّس، وغير قابل للنقد، فإنهم يتشرّبون عقلية الطاعة والتسليم، ويُسقِطون هذه العقلية تلقائيًا على من "يحمل النص"، أي على القيادة.

فيصبح القائد، لا بوصفه مُنجزًا أو مفكرًا، بل بوصفه ممثلًا للنهج، شخصية فوق النقد، وفوق المراجعة، وفوق المساءلة.

وهنا، تبدأ القيادة الأبوية في الظهور لا كانحراف طارئ، بل كنتاج عضوي لمنظومة فكرية ترفض النقد في جذورها.

2-شرعنة السلطة عبر رمزية "حماية العقيدة"

في التربية اللاهوتية، تُمنح القيادة شرعيتها لا من خلال الإنجاز، ولا من خلال وضوح الرؤية أو فعالية الأداء، بل من خلال ادّعاء حماية "النهج القويم."

ويُصبح القائد هو "الحارس الأمين" على العقيدة، ويُمنع المساس به لأن أيّ نقد له يُفهم تلقائيًا كخطر على العقيدة نفسها.

القائد في هذه الحالة يُصبح امتدادًا للنص، ويأخذ سلطته من قداسة النص، لا من كفاءته كقائد.

وهكذا تُبنى داخل المؤسسة هالة كهنوتية حول القيادة، أشبه بما يُبنى حول المرجعيات الدينية.

3-استبدال القيادة العقلانية بالزعامة الرمزية

البيئة التربوية التي تنتجها المنهجية اللاهوتية لا تطيق القادة العقلانيين الذين يفكّرون وينتقدون ويعيدون تقييم المسار، بل تبحث عن "قائد ملهم"، يحمل صفة شبه نبوية:

1. يقول ما يرضي الجمهور.
2. يحمي الشعارات.
3. يمنع التشكيك.
4. يختصر المؤسسة في شخصه.

ومع الوقت، حتى القادة الذين بدأوا بعقل نقدي، يجدون أنفسهم مجبرين على ارتداء هذا القناع "الأبوي"، وإلا فقدوا شرعيتهم داخل هذا المناخ.

4-قاعدة ذهبية: الجمهور الذي يقدّس النص... ينتج من يقدّس القائد

في هذه البنية النفسية-الفكرية، لا يعود القائد بحاجة إلى إقناع، بل إلى إثبات الولاء للنص. ولا يعود الجمهور بحاجة إلى تحليل، بل إلى طمأنينة.

ويُستبدَل الحوار الأفقي بين القيادة والأعضاء، بسلسلة ولاءات عمودية تُكرّس كل من هو "أقرب للنص" في الهرم الأعلى، وتُقصي كل من يطرح أسئلة.

وهكذا، يُعاد إنتاج النموذج الأبوي من داخل المؤسسة التي وُجدت أساسًا لتجاوزه وتغييره.

==========

رابعًا: الجذور الاجتماعية للقيادة الأبوية واستيرادها إلى المؤسسات النهضوية

القيادة الأبوية، بما تحمله من طابع هرمي وتقديسي وشخصاني، ليست وليدة المؤسسة النهضوية بحد ذاتها، بل هي امتدادٌ لنموذج سلطوي متجذر في البنية الاجتماعية والثقافية للشرق، وخاصة في المجتمعات العربية التي عرفت نمطًا سلطويًا تقليديًا عبر القرون.

وما لم يُفكَّك هذا النموذج على المستوى الاجتماعي والفكري، فسيجد طريقه تلقائيًا إلى كل مؤسسة، حتى تلك التي نشأت أصلاً لتجاوزه.

1-المجتمع التقليدي وإنتاج القيادة الأبوية

أ. القبيلة والعائلة والطائفة

المجتمع التقليدي في العالم العربي، سواء في المدينة أو الريف أو البادية، بُني على منظومة سلطة عمودية، يُختزل فيها القرار بشخص "الأب" أو "الشيخ" أو "المسؤول" أو "الرئيس الروحي."

ويتمتّع هذا الشخص بصفات رمزية مستمدة من:

- الإرث العائلي أو الدموي.
- التقاليد والأعراف.
- التقدير الاجتماعي الذي يُمنح لا على أساس الإنجاز، بل على أساس "الهيبة والمكانة."

ب. منطق الحماية مقابل الطاعة

في هذا النظام، تُبنى العلاقة بين الجماعة والقائد على مبدأ:

"نحن نطيعك، وأنت تحمينا"، تمامًا كما هو الحال في السلطة الدينية التقليدية.

2-كيف يُستورد هذا النموذج إلى المؤسسات النهضوية؟

عندما ينتقل أبناء هذا المجتمع إلى الحركات النهضوية التي تعتمد في ظاهرها على مبادئ علمية وتنظيمية عقلانية، لا يتركون بالضرورة هذا النموذج خلفهم، خاصة إذا لم يكن انتماؤهم نتيجة تحول جذري في القيم والتربية والسلوكيات، بل يحملونه معهم ضمنًا في لا وعيهم الثقافي والإداري والسياسي.

فبدلاً من تحويل الحركة إلى مختبر حرّ للفكر والتجريب والتطبيق، تُعاد صياغتها لا شعوريًا كنظام ولاء، حيث يُطلب من القائد أن يكون "أبًا"، لا "مسؤولًا."

أمثلة على هذا الاستيراد:

- تحويل "القائد" إلى مرجعية لا تُنتقد.
- الاحتكام في الخلافات إلى "رموز" بدل العودة إلى منطق أو معايير.
- التفاخر بالقرب من القيادة كما يُتفاخر بالنسب أو العصبية في البيئة القبلية.
- التعامل مع النقد كإهانة شخصية لا كمراجعة مؤسساتية.

3-لماذا يُفضّل بعض القادة النموذج الأبوي؟

ببساطة، لأنه أسهل في التحكم، وأوسع في الصلاحية، وأقل في المحاسبة.

النموذج الأبوي يوفّر للقيادة:

•سلطة غير محدودة باسم "الشرعية التاريخية" أو "الشرعية الدستورية."

- حرية اتخاذ القرار دون مساءلة حقيقية.
- قدرة على إقصاء الخصوم أو المعارضين عبر تهم "التمرد" أالانحراف" عن المؤسسة أو العقيدة.

بالمقابل:

النموذج العلمي للقيادة يتطلب:

- شفافية.
- مساءلة دائمة.
- انفتاح على النقد.
- كفاءة على أساس النتائج.

وكل ذلك يُزعج من يســـعى للبقاء في موقعه دون بذل جهد حقيقي للتطور أو التجديد.

4-التأثير **العكسي على المؤسسة النهضوية**

عندما تُستورد القيادة الأبوية إلى مؤسسة نهضوية، يحدث تشويه مزدوج:

- يُشوَّه مضمون العقيدة، التي تصبح وسيلة تمجيد لا أداة تحليل.
- ويُشوَّه شكل المؤسسة، التي تصبح جهازًا للحماية لا للتغيير.

وبدل أن تكون المؤسسة مكانًا لإنتاج المفكرين وصنّاع الرأي، تتحوّل إلى منظومة ولاء تُكافئ التبعية وتُقصي النقد.

==========

خامسًا: الآثار البنيوية لهذا الانقلاب الداخلي

إنّ الانتقال من النهج العلمي الذي أراده المؤسس إلى النهج اللاهوتي الذي كرّســته القيادات الأبوية، ومن القيادة العقلانية إلى الســلطة الرمزية، لا يمرّ بلا كلفة. بل إنه يُنتج نتائج خطيرة تمسّ جوهر المشروع النهضوي نفسه، وتحوّله من مسار تحرّري تطوّري إلى بنية مغلقة تفتك بحيويته من الداخل، حتى وإن ظلّ يرفع شــعارات التقدّم والتغيير والنهضة.

وهنا، نُبرز الآثار البنيوية التي تضــرب الكيان الفكري والمؤســسي للحركة النهضــوية، فتقوّض أســباب وجودها وتمنعها من أداء دورها في المجتمع.

1-شلل فكري وتكرار شعارات

حين يتحول النص إلى "مقدّس" لا يُمسّ، ويتحوّل القائد إلى "حارس على الكمال"، تفقد المؤســسة قدرتها على إنتاج فكري جديد. وتدخل في مرحلة إعادة التكرار:

- تكرار المصطلحات والشعارات نفسها.
- تكرار المواقف القديمة على كل واقع جديد.
- تكرار المقاربات والأدوات دون التفكير في ملاءمتها.

ويصبح الاجتهاد نوعًا من الخروج، والتجديد نوعًا من التهديد.

النتيجة: يُصاب الفكر بالجمود، وتفقد العقيدة صلتها بالحياة، وتتحوّل إلى خطاب محفوظ لا يُلهم ولا يُقنع.

2-جمود تنظيمي وإدارة بالولاء

البنية المؤسسية أيضًا لا تسلم من هذا الانقلاب:

- يتم تثبيت الهياكل كما هي، مهما كانت عاجزة أو بائدة.
- تُدار المواقع والمهمات بناءً على "الولاء للنهج" أو "القرب من القيادة"، لا على الكفاءة أو الإنجاز.
- تغيب المعايير الموضــوعية للتقييم، لتحلّ مكانها شــبكة العلاقات، والانتماءات، والانحيازات.

النتيجة: تضيع الفعالية، وتتحوّل المؤسسة إلى جهاز إداري متضخم بلا أثر حقيقي، أشبه بجسم ميت يُحرّك صورته فقط.

3-انفصال عن الواقع وفقدان التأثير المجتمعي

كلما ازدادت المؤسسة انغلاقًا على رموزها ونصوصها، كلما فقدت قدرتها على فهم الواقع المتغير والتفاعل معه. وهذا يظهر في:

- العجز عن مواكبة التغيرات المجتمعية.

- ردود أفعال كلاسيكية ومكررة على الأزمات.
- استخدام خطاب قديم على جمهور لم يعد يقتنع به أو ينجذب اليه، خاصة اذا كانت السلوكيات والممارسات متناقضة مع الأسس القيمية والعقلية الأخلاقية التي بني على أساسها.

ويصبح الخطاب النهضوي وكأنه صدى من الماضي، لا لغة الحاضر والمستقبل.

فتكون النتيجة: تقلّص قاعدة التأثير، وتحوّل المؤسسة إلى دائرة مغلقة تخاطب نفسها، بدل أن تكون أداة تغيير مجتمعي حقيقي معاصر.

4-إقصاء المجددين وتحفيز التبعية

في هذه البنية، يصبح كل من يفكّر خارج "الإطار المقبول" موضع ريبة.

ويجري استبعاد كل عقل نقدي، أو تفكير مستقل، أو تجربة متجددة، لأنها لا تخضع لقوالب السلوك السائدة.

من يُفكّر ويبدع، يُحاصَر.

ومن يُقلِّد، يُكافأ.

وهكذا تتحوّل المؤسسة إلى أداة لإنتاج التبعية، بدل إنتاج القادة والأفكار.

5-انهيار المعايير الداخلية وتفكك البنية الأخلاقية

في ظل هذه المنظومة، يُصبح التناقض بين الشعارات والسلوك صارخًا:

- تُرفع رايات النهضة بينما تُمارس البيروقراطية والجمود.
- يُنادى بالعقل بينما يُمارس التسلّط.
- تُكرَّم المبادئ بينما تُنتهك داخليًا.

وتكون النتيجة: فقدان الثقة، وتآكل الروح، وانهيار العقلية الأخلاقية التي تُفترض أنها جوهر العقيدة.

==========

سادسًا: طريق التحرّر واستعادة النهضة

بعد تحليل هذا المسار الانحداري الذي تمرّ به المؤسسات النهضوية – من العقل العلمي إلى اللاهوت الرمزي، ومن الريادة الفكرية العلمية إلى القيادة الأبوية – تبرز الحاجة الحتمية إلى مشروع مضاد:

تحريري، نقدي، استراتيجي، ومتجدد.

ولعلّ الشرط الأول لنجاح هذا المشروع ليس التمرّد الظاهري على البنى، بل العودة العميقة إلى جوهر النهضة كما أرادها المؤسّس العقلاني، لا كما فُسّرت لاحقًا ضمن أنماط السيطرة والتقديس. ولا العودة الى النص كآيات أو الى نمط القيادة في زمن سابق، دون أخذ تطورات العصر والحياة بعين الاعتبار. لأن المؤسس صاحب الريادة الفكرية العلمية لم يكن ليستكين ويتجمد لو كان موجوداً وشاهداً على تطورات الحياة وتغير الواقع الاجتماعي.

فالنهضة ليست نُسخة محفوظة، بل ديناميكية متحرّكة. وإذا أردنا إنقاذها من التحنيط، علينا تحريرها من داخلها.

1-العودة إلى المنهج العلمي لا إلى الشعارات

أهم ما تحتاجه النهضة اليوم ليس إعادة إنتاج الخطاب، بل استعادة المنهج العلمي:

- إعادة فتح باب الاجتهاد والتحديث في المفاهيم والأدوات حسب الحاجة. وهذا لا يعني بالضرورة الانقلاب على فكر المؤسس بل استعادة نهجه العلمي الذي انتج الفكر.
- إخضاع النصوص والمقاربات والأدوات للتفكير النقدي لا للحفظ والتلقين العقائدي.
- استخدام مبادئ العقيدة كإطار تحليل وتحليق للفكر لا كتعويذة تنظيمية.

النهضة لا تُحمى بالشعار، بل بالتحليل.

ولا تُصان بالبناء اللفظي، بل بالفاعلية والتجريب والتطبيق والتعديل.

2-تحرير المؤسسة من الأبوة الرمزية

يجب تفكيك بنية القيادة الأبوية من جذورها، عبر:

- فصل الشرعية عن التاريخ الشخصي أو الرمزية العاطفية.
- ربط الموقع القيادي بالوظيفة لا بالمكانة.
- إخضاع القيادة للمساءلة لا للتبجيل.
- خلق دورة قيادية متجددة، قائمة على الكفاءة والتقييم.

القائد ليس وصيًا على العقيدة، بل خادمٌ لمسارها وغايتها.

من يقف ضد المراجعة، يقف ضد النهضة ذاتها.

3-ردّ الاعتبار للعقل كمرجعية عليا

في كل بنية صحيّة، تكون المرجعية العليا هي العقل الجماعي والنتائج، لا النص الجامد أو الفرد المعصوم.

فالمؤسسة لا تحتاج إلى "قائد ملهم"، بل إلى منظومة تفكير حيّة، تقوم على:

- الشفافية.
- تشارك الرأي.
- التجريب والتحسين.
- التعلّم من الخطأ.

النهضة ليست عملية إيمان أعمى، بل عملية وعي واقتناع.

4-تجديد العلاقة بين الأجيال والنص

يجب أن يُعاد ربط الجيل الجديد بالعقيدة لا بوصفها إرثًا، بل كـ "مشروع تفكير وتحديث". وهذا يتطلّب:

- تفكيك اللغة الجامدة وتحديث الخطاب حيث يجب.
- دمج الأجيال الجديدة في النقاشات الفكرية لا في حلقات التلقين.
- تحويل المبادئ إلى أدوات تحليل واقعية، لا إلى صكوك هوية.

الشاب الذي يُطلب منه أن يردّد دون أن يشارك في التحليل والتقييم، سيترك المؤسسة. أما الذي يُمنح حقّ التفكير والمشاركة، فسيجددها من داخلها.

5-إعادة تعريف النجاح داخل المؤسسة

يجب أن يتغير مقياس التقدير:

- من الولاء إلى الإنجاز.
- من القرب من القيادة إلى عمق الأثر.
- من الحفظ والتنفيذ إلى التفكير النقدي والإبداعي.

لأن المؤسسة التي تُكرّم التكرار، ستعيد إنتاج التخلّف، مهما كان شعارها نهضويًا.

==========

سابعًا: التحولات المعاصرة وتحدي النهضة في عصر الرقمنة والمعرفة

دخلت البشرية في العقود الأخيرة مرحلةً غير مسبوقة من التحوّلات، لم تعد تُقاس فقط بتطورات سياسية أو اجتماعية تقليدية، بل باختراق عميق لأنماط الحياة والإنتاج والإدارة والتواصل والمعرفة.

فالعالم اليوم يشهد ثورات متلاحقة في:

- التحوّل الرقمي وإدارة المعلومات.
- الذكاء الاصطناعي والتعلّم الآلي.
- منصات التواصل الاجتماعي كفاعل ثقافي وسياسي واقتصادي.
- الاقتصاد المعرفي والمتّحدات الشبكية.
- أنماط العمل اللامركزي والتعليم المدمج والمعرفة الرقمية.

لقد تغيّر مفهوم الزمان والمكان والسلطة والمعلومة والتأثير، وتحوّل الفرد من متلقٍ سلبي إلى فاعل يملك أدوات التأثير والتعبير والمعرفة.

ولم تعد النظم التقليدية قادرة على احتواء هذا التوسّع في العقل الإنساني، لا إداريًا ولا ثقافيًا ولا قيميًا، بل باتت في مواجهة مباشرة مع جيل جديد يبحث عن المعنى والحرية والسرعة والفعالية والعدالة معًا.

كيف تواكب الحركات النهضوية هذا العصر دون أن تفقد روحها؟

لا يمكن لحركات النهضة أن تنجح اليوم ما لم تخرج من ثنائية الانبهار أو الرفض، وتدخل في منهجية نقدية علمية تستند إلى المبادئ لا إلى الانغلاق، فتقوم بـ:

1. تحليل هذه التطورات بأدوات علمية غير انفعالية.
2. فهم ما يمكن دمجه من تقنيات جديدة في مشروعها الفكري والتنظيمي.
3. إعادة صياغة خطابها التربوي والثقافي ليخاطب جيلًا تربّى على الشاشة لا على المنبر.
4. بناء وعي تكنولوجي–فلسفي قادر على حماية المبادئ، لا الانغلاق على الذات.
5. تحويل الذكاء الاصطناعي وأدوات الرقمنة من تهديد إلى فرصة، ومن تحدٍّ إلى أداة في خدمة المشروع النهضوي.

النهضة لا تُواكب العصر بالتصفيق للتقنية، ولا برفضها أخلاقيًا، بل بفهمها، وتحليلها، وتطويعها لخدمة الإنسان والهوية والمجتمع.

==========

خاتمة: النهضة عقل يُجدد لا سلطة تُكرّس

لم تكن النهضة، كما أرادها المؤسسون العقلانيون، موقفًا عاطفيًا تجاه الماضي، ولا عبادة لشعارات محفوظة. بل كانت – ولا تزال – مشروعًا تحرّريًا متجددًا، غايته تحرير الإنسان والمجتمع من كل ما يُقيد الفكر، ويُعطّل الطاقة، ويستبدل المشاركة بالولاء، والمبادرة بالخوف.

غير أنّ التحدي لم يعد اليوم مجرد خلل تنظيمي داخلي، بل بات تحدّيًا حضاريًا شاملًا.

فالعالم يتغيّر بسرعة مذهلة، والأجيال الجديدة لا تنتظر خطابًا قديمًا يُعاد تعليبه، بل تبحث عن فكرٍ يُجيب عن أسئلتها الجديدة والملحّة.

- ما هي العدالة في زمن الذكاء الاصطناعي؟
- ما معنى الحرية في عصر الرقابة الرقمية؟
- كيف نعيش هويتنا في عالم بلا حدود معرفية؟
- وما هو الحق حين تُنتج الخوارزميات قِيَمنا وسلوكنا؟

إنّ مشروع النهضة الحقيقي هو ذاك القادر على خوض هذه الأسئلة بشجاعة، وتقديم أجوبة نابعة من المبادئ، قائمة على المنهج العلمي، ومفتوحة على المستقبل.

النهضـــة التي نحتاجها اليوم ليســـت ســـلفية تعيد إنتاج اللحظة التأسيسية، ولا تقديسية تُحيط النصوص والطقوس بهالة عصمة، بل:

- نهضة تُخضع مساراتها وتطبيقاتها للمراجعة المستمرة.
- تُربّي على التفكير النقدي لا على الطاعة والانقياد.
- تُعيد تعريف العقيدة بوصـــفها منهجًا للفهم والتحليل والابتكار لا جدارًا للحماية.
- تُنظّم الفعل وتُقيّمه، بدل تمجيد الشكل والتنظيم.
- تنفتح على التقنيـة كـأداة للتحرّر والابتكـار، لا كخطر على الهوية.

إنّ النهضـــة التي تتهرّب من تحديات العصـــر، محكوم عليها بأن تتحوّل إلى ذكرى عاطفية.

والنهضـــة التي تفشـــل في حماية الجيل الجديد من الفوضـــى، والاغتراب، أو الغرق في الحشو المعلوماتي بلا بوصلة فكرية، ستفقد أثرها ومعناها.

أما النهضـة التي تُعيد وصـل الأجيال بالحرية، والهوية، والعقل، فهي وحدها القادرة على العبور من القرن العشرين إلى الحادي والعشرين، ومن الشعار إلى الإنجاز، ومن الولاء الأعمى إلى الوعي الخلّاق.

فالنهضة ليست ما نقوله عنها، بل ما تصنعه منّا.

إنها حركة عقل في قلب التاريخ، مشـــروع تحرّري دائم، هدفه بناء الإنسـان الحرّ، وتمكينه من إنتاج مجتمعه العادل، القائم على الفكر، والإبداع، والمسؤولية، والكرامة.

النهضـــة ليســـت جدارًا نحتمي خلفه... بل نافذة نطلّ بها على المستقبل.

هي ليست حنينًا إلى المؤسس، بل وفاءً حيًّا لمنهجه الحر.

ليست خيمة تحمينا من السؤال، بل محركًا لطرح الأسئلة الكبرى.

وليست منصـة لتقديس القيادات الرمزية، بل ورشـة دائمة لإنتاج قادة مفكرين.

كل حركة نهضوية لا تُراجع ذاتها، ستتحوّل إلى متحف.

وكل مؤسسة لا تُخضع قيادتها للمساءلة، ستُفرّغ رسالتها من معناها.

وكل فكر لا يُجدّد أدواته، سيُستبدل بفكر آخر أكثر مرونة وفاعلية.

ولذلك، فإن المطلوب اليوم ليس الانشقاق عن المؤسسة، بل تحريرها من الداخل:

- إعادة الاعتبار للعقل.
- كسر الجمود الطقسي.
- إعادة تنظيم السلطة على أسس وظيفية قابلة للتقييم والقياس، لا على أسس رمزية.
- تربية الأعضـــاء على التفكير النقدي والنقد البّناء لا على الولاء الأعمى.
- واسـتعادة المشـروع النهضـوي من أيدي من جمّدوه تحت شـعار حمايته.

ولعلّ أعظم وفاءٍ للمؤسس، لا يكون بتكرار عباراته أو حفظ كتبه، بل بأن نفكر كما كان يفكر:

بمسـؤولية، بجرأة، بعقل مفتوح على الواقع، وبإرادة لا تخاف الحقيقة، ولا تتهرّب من المراجعة، ولا تستبدل العقل بالطاعة.

فالنهضة ليست ما كان... النهضة هي ما يمكن أن يكون.

*رئيس مؤسسة سعاده للثقافة